

رواية

الخيميائي

ترجمة: لمياء منذر

الخيميـــائـي

ترجمة: لمياء منذر

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة النشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف:٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهـــداء

إلى ج

الخيميـائي الـذي عـرف اسـتخدام أسـرار الإنجاز العظيم

وفيما هم سائرون، دخل قرية فاستقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها، كان لهذه أخت تُدعى مريم التي جلست عند قدمي يسوع وكانت تسمع كلامه وأمَّا مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة فوقفت وقالت: "يا رب أما تُبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني".

فأجاب يسوع وقال لها: "مرثا! مرثا! أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الذي لن يُنتزع منها".

إنجيل لوقا الإصحاح، العاشر، ٣٨ ـ ٤٢

تمهيد

تنـاول الخيميـائي كتـاب كـان قـد جلبـه أحـد أفـراد القافلة معه، ومع أن الغـلاف كـان ممزقـاً استطاع أن يحـدد كاتبـه "أوسـكار وايلـد". وأثنـاء تقليبـه لصفحاته وقـع نظـره على قصة تتحدث عن "نرجس".

كان الخيميائي يعرف أسطورة "نرسيس"، ذلـك الشـاب الوسيم الذي اعتاد الـذهاب إلى البحيرة يوميـاً ليتأمـل جمالـه المنعكس في مائها.

كـان نرسـيس شـديد الافتتـان بـصورته، ممـا جعلـه في أحد الأيام يسقط في تلك البحيرة ويغرق فيها.

وفي المكان الذي سقط فيـه نبتـت الزهـرة الـتي نـدعوها بالنرجس.

إلا أن "أوسـكار وايلـد" لم يُنهيهـا بهـذه الطريقـة بـل قـال إنـه بمـوت "نرسـيس" جـاءت الإريـادات[1] (ربّـات الغابـات) إلى

١- حوريات الجبال والهضاب.

ضفة البحيرة ذات الماء العذب فوجدوها قد تحوّلت إلى جرن[1] مليء بالدموع المريرة.

فبادرنها بالسؤال:

- "لماذا تبكين؟"

- "إني أبكي نرسيساً" أجابت البحيرة.

- "لا يُدهشنا البتَّة... فما من أحد سواك استطاع تأمل جماله عن قرب... في حين كنَّا نحاول عبثاً أن نلاحقه في الغابات...".

- "إذاً كان نرسيس جميلاً؟!" سألت البحيرة.

- "ومَن له أن يعرف ذلك أكثر منكِ؟، أجابت الإريادات باستغراب. لقد كان ينحني كل يوم عند ضفافك!"

بقيت البحيرة صامتةً للحظة ثم قالت:"أنا أبكي لأجل "نرسيس"، لكنني لم ألحظ أبداً أنه كان جميلاً، إني أبكيه لأنه في كل مرة انحنى فيها على ضفافي رأيت في أعماق عينيه انعكاس جمالي الخاص."

"يا لها من قصة جميلة حقاً." قال الخيميائي.

٢- وعاء.

الجزء الأول

كان النهار يشارف على نهايته عندما وصل مع قطيعه إلى كنيسة قديمة مهجورة ذات سقف متقوّض.

منذ زمن بعيد وقد نما في مكان الموهف[1] جميزة[2] كبيرة. إنه (سنتياغو) قرر أن يُمضي الليلة في هذا المكان... فأدخل نعاجه من الباب المهدم ووزع عليه بعض الأغصان بطريقة تمنعهم من الهرب خلال الليل... لم يكن في المنطقة ذئاب. إلاّ أن هرب إحدى تلك النعاج سيكلفه نهاراً بطوله للبحث عنها.

١- "موهف" أو "سكريستيا" وهي غُرفة مُلحقة بالكنيسة توضع فيها أدوات القداس والعبادة مثل المنجرة والكأس الفضية ... وهكذا...

٢- شجرة تين فرعون.

بسط معطفه على الأرض وتمدد عليه جاعلاً الكتاب الذي أنهى قراءته للتو وسادةً له... وقبل أن ينام فكّر بأن عليه من الآن فصاعداً أن يقرأ أعمالاً أكبر حجماً من هذا... فهكذا سيُمضي وقتاً أطول لإنهائها... وفي الليل ستكون وسائد أكثر راحة.

عندما استيقظ كان الظلام لا يزال مخيماً... ومن خلال السقف المهدم تقريباً نظر إلى النجوم المتلألئة. لقد رأى نفس الحلم الذي رآه في الأسبوع الماضي ... ومن جديد استيقظ قبل نهايته "يا ليتني استطعت النوم لوقت أطول بقليل". نهض وأخذ جرعة خمر، ثم أمسك عصاه وبدأ يوقظ بعض النعاج التي كانت لا تزال نائمة... وقد لاحظ أن معظمها قد استيقظت ما إن عاد هو إلى صحوه. وكأن قوة خفية تربط حياته بحياة تلك الخراف التي تجوب معه البلاد منذ سنتين سعياً وراء الكلأ والماء. "لقد اعتادوا عليَّ كثيراً لدرجة أنهم أصبحوا يعرفون مواقيتي..." قال لنفسه بصوت خافت... وبعد لحظة من التفكير وجد أنه من الممكن جداً أن يكون العكس هو الصحيح، فقد يكون هو من اعتاد على مواقيت هذه الحيوانات.

وبالرغم من ذلك فقد تأخرت بعضها في الاستيقاظ، فأيقظها بعصاه الواحدة تلو الأخرى... وهو يدعو كل منها باسمها. إنه على ثقة بأن النعاج قادرة على فهم ما يقول... ولهذا كان يقرأ لها أحياناً مقاطعاً من الكتب التي يقرؤها أو يحدثها عن الوحدة... أو عن الفرح في حياة الرعاة في الريف... أو كان يخبرها عن آخر ما توصلت إليه المدن التي اعتاد المرور بها منذ حداثة سنه إلاّ أنه ومنذ أمس الأول لم يعد لديه فعلياً موضوع آخر سوى الحديث عن تلك الشابة التي تعيش في البلدة التي سيصل إليها بعد أربعة أيام. لم يسبق له الذهاب إلى هذه البلدة إلا مرة واحدة وذلك في السنة الماضية.

كان والد الشابة تاجر يملك مخزن نسيج... وكان يشترط أن تُجزَّ الخراف تحت أنظاره كي لا يقع ضحية للغش.

لقد دلّه عليه أحد الأصدقاء فساق قطيعه إليه.

"أود بيع بعض الصوف" قال التاجر.

وكـان الـدكان في تلـك الـساعة ممتلـئ، فطلـب منـه التـاجر أن ينتظـره حتـى بدايـة حلـول المـساء... فـذهب الراعـي وجلس على رصيف الدكـان وتناول كتاباً من جعبته.

- "لم أكـن أعـرف أن باسـتطاعة الرعـاة القـراءة..." قـال صـوت امـرأة بجانبـه. إنهـا شـابة تمثـل نمـوذج مـن نـساء تلـك المناطق الأندلسية بشعرها الطويل ... وعيناها اللتان تذكـران بغرابة الفاتحين المغاربة القدماء.

ـ "النعـاج تعلّـم أشـياء أكـبر وأكثـر بكـثير مـن الكـتب..." أجابها الراعي الشاب.

ثـم دخـلا في حـديث طويـل اسـتمر أكثـر مـن سـاعتين متواصلتين ... عـرف خلالـه أنهـا ابنـة التـاجر ... وحدثتـه عـن القريـة حيـث تتـشابه الأيـام... وهـو بـدوره حـدثها عـن الريـف الأندلسي... وعن آخر التطورات التي رآها في المدن التي مـرَّ بها... كان سعيداً جداً فهو الآن غير مضطر إلى التحدث مع النعاج.

- "كيـف تعلّمـت القـراءة؟" سـألته الـشابة. فأجابهـا: ـ "مثل كل الناس، في المدرسة."

- "ما دمت تعرف القراءة... لماذا لست سوى مجرد راعٍ؟"

تهرّب الشاب من الجواب لأنه كان متأكداً من أنها لن تستطيع فهمه... لذلك عاد إلى سرد حكايات أسفاره... بينما كانت العينان المغربيتان الصغيرتان تنفتحان وتنغلقان تحت تأثير الحيرة والاستغراب.

وبمرور الساعات أصبح الشاب يتمنى ألاّ ينتهي النهار، وأن يظلَّ والد الشابة مشغولاً كي يطلب منه الانتظار لثلاثة أيام أيضاً.

كان ينتابه شعور لم يسبق له أن أحس به... إنها رغبة بالاستقرار في نفس المدينة إلى الأبد... فمع هذه الشابة ذات الشعر الأسود لن تكون الأيام متشابهة.

لكن... في نهاية الأمر... جاء التاجر، وطلب منه أن يجزَّ أربع نعاج... ثم دفع له ما توجب عليه، ودعاه للعودة في السنة المقبلة.

واليوم لم يعد يفصله عن تلك البلدة سوى أربعة أيام. كان حماسه شديداً وفي الوقت ذاته كانت الريبة تملأه... ربما تكون الشابة قد نسيته... فالرعاة الذين يمرون في قريتهم كُثر.

"هذا غير مهم، قال مخاطباً نعاجه... فأنا أيضاً أعرف فتيات أخريات في بلدات أُخرى."

لكن... في أعماق قلبه... كان يعرف أن ذلك أبعد ما يكون عن عدم الأهمية، وأن الرعاة كالبحارة أو التجار المتجولين لهم دائماً شخص ما في مدينة ما قادر على جعلهم ينسون متعة التجوال في العالم بحرية.

مع ولادة تباشير الفجر الأولى، ساق الراعي خرافه باتجاه الشمس الآخذة بالشروق...

"ليسوا مضطرين أبداً لأخذ القرار، فكّر. ربما لهذا السبب يبقون دائماً بالقرب مني."

الحاجة الوحيدة التي تعرفها الخراف هي الكلأ والماء... وبقدر ما يعرف راعيها من مراعي خيّرة في الأندلس، تكون صديقة له. لا بل مسرورة جداً وراضية فلا تبالي بالأيام المتشابهة ولا الساعات الطويلة التي تزحف بين شروق الشمس وغروبها... ولا تهتم لكونها لم تقرأ أي كتاب خلال وجودها القصير... ولا تعرف لغة الإنسان الذي يحدثها عمّا يحدث في القرى... إنها مُكتفية بالكلأ والماء... وهي

بدورها تقدم وبكل سخاء الصوف والصحبة ومن وقت لآخر اللحم.

"إذا ما تحولت ذات يوم إلى وحش، ورحت أقتل هذه الخراف الواحد تلو الآخر... فإن القطيع لن يُدرك أبداً أنه سيأتي يوم أُجهز فيه عليه كله... فكّر. فهذه الخراف تثق بي وقد توقفت عن الاعتماد على غريزتها الخاصة... وذلك لأنني أنا مَن قادها إلى المرعى."

شعر الشاب بغرابة أفكاره... ربما تكون هذه الكنيسة مع الجميزة المنتصبة في داخلها مسكونة بالأرواح. ألا يمكن أن يكون هذا هو سبب استعادته لنفس الحلم... وهو أيضاً ما جعله الآن يغضب من نعاجه وهن الصديقات الوفيات دائماً؟ شرب ما تبقى لديه من خمر... وشدَّ معطفه على جسده كان يعرف أنه خلال ساعات قلائل، عندما تصبح الشمس عامودية... سيكون الجو حاراً جداً ولن يستطيع عندها أن يقود القطيع في البريّة.

في تلك الساعة من الأيام الصيفية تكون إسبانيا غافية برمتها...

ويستمر الجو حاراً حتى هبوط الليل... وطوال هذا الوقت سيتوجب عليه حمل المعطف معه. في بعض الأحيان كان يضيق ذرعاً بهذه الحمولة... ثم لا يلبث أن يتذكر أنها هي من تحميه من برد ساعات الصباح الأولى.

"يجب أن نكون مستعدين دائماً لمواجهة تقلبات الطقس." هذا ما فكّر به الشاب... متقبلاً بامتنان ثقل معطفه الذي وجد مبرراً لوجوده هو أيضاً... فمنذ حوالي السنتين وهو يطوف في السهول الأندلسية، لقد عرف وحفظ عن ظهر قلب كل مدن المنطقة وهذا ما أعطاه معنى لحياته: الترحال.

قرر أن يفسِّر للفتاة في هذه المرّة لماذا يعرف راعٍ بسيط القراءة: منذ صغره وحتى بلغ السادسة عشرة من عمره كان يرتاد المدرسة الإكليريكية... ولطالما أراد أهله أن يصبح رجل دين... فهذا مدعاة فخر لعائلة قروية متواضعة تعمل فقط لكسب الزاد والماء... تماماً مثل هذه الخراف. كان يتعلم اللاتينية والإسبانية وعلم اللاهوت. لكنه ومنذ طفولته المبكرة كان يحلم بالتعرف على العالم... وكان هذا الأمر بالنسبة له أهم من التعرف على الذات الإلهية وآثام البشر وخطاياهم.

وفي إحدى الأمسيات عندما كان في زيارة عند عائلته تشجّع وقال لوالده أنّه لا يريد أن يكون خوري... بل يرغب بالسفر فأجاب أباه:

ـ "يا ولدي... يأتي الناس من أصقاع العالم كله إلى هذه القرية... يبحثون هنا عن أشياء جديدة... لكنهم يبقون ذاتهم. يذهبون إلى القرية ليروا القصر... فيجدون أن الماضي كان أهم وأثمن من الحاضر... وهؤلاء الأشخاص جميعاً سواءً أكانوا ذوي شعر أشقر... أو ذوي سحنات سمراء... يشبهون الناس في قريتنا."

ـ "لكنني لا أعرف القصور الموجودة في بلاد أولئك الرجال، أجاب الشاب"

ـ "عندما رأى هؤلاء الرجال حقولنا ونساءنا... تمنوا أن يعيشوا هنا إلى الأبد."

ـ "أريد أن أتعرف على النساء والأراضي في بلادهم لأنهم لم يبقوا بيننا."

ـ "لكن يا بني لهؤلاء الناس جيوب مليئة بالمال أمّا عندنا فوحدهم الرعاة مَن تتاح لهم رؤية العالم."

ـ "إذاً سأصبح راعياً."

لم يزد الأب كلمة بعد ما قاله ابنه، بل أعطى ولده في صبيحة اليوم التالي صُرَّة تحتوي على ثلاث قطع ذهبية إسبانية قديمة.

ـ "ذات يوم، عثرت على هذه القطع في الحقل وكنت أنوي أن أقدمها للكنيسة بمناسبة رسامتك. خذها واشتري بها قطيعاً وطُف العالم إلى أن يأتي اليوم الذي تُدرك فيه أن قصرنا أولى بالخير، وأن نساءنا هنَّ الأكثر جمالاً."

ثم ودعه وباركه.

في عيني الأب... قرأ الصبي الرغبة في اجتياب العالم... رغبة بقيت حيّة بالرغم من عشرات السنين التي قضاها في نفس المكان يأكل ويشرب ويغفو فيه كل ليلة محاولاً أن يقتل تلك الرغبة الساكنة في أعماقه.

صُبغت الأفق البعيدة باللون الوردي، وما هي إلاّ لحظات حتى ظهرت الشمس.

تذكّر الشاب حديثه مع والده فشعر بالسعادة... لقد أصبح الآن يعرف الكثير من القصور والنساء (لكن ليس بينهن من يمكنها أن تماثل تلك التي ينتظر لقاءها بعد يومين من الآن)، لديه معطف وكتاب يمكن استبداله

بآخر... ولديه قطيع من الخراف... لكن الأهم من كل هذا هو أنه في كل يوم كان يحقق حلم حياته الكبير: الترحال.

وعندما سيسأم من البراري الأندلسية يمكنه أن يبيع الخراف ليصبح بحاراً... وحين يملُّ البحر سيكون قد تعرف على الكثير من المدن، والكثير من النساء... والكثير من فرص السعادة...

سأل نفسه متأملاً ولادة الشمس: "كيف يمكننا أن نسعى إلى الله في حلقات الدراسة الإكليريكية؟" ففي كل مرّة تتاح له بها فرصة كان يأخذ خط سير جديد... وبالرغم من أنه قد سبق له المرور من هنا إلاّ أن هذه هي المرّة الأولى التي يصل بها إلى هذه الكنيسة. إنّ العالم كبير لا ينضب... وفي كل المرات التي ترك فيها الخراف تقوده كانت توصله بوقت قصير إلى اكتشاف المزيد من الأشياء المليئة بالنفع والمتعة...

"المشكلة أنهم لا يُدركون عبورهم في كل يوم لطرقات جديدة... ولا يلحظون تغير المراعي... ولا تباين الفصول... فلا هاجس لهم سوى الكلأ والماء."

"ربما يكون هذا هو حال كل العالم، فكّر الراعي. حتَّى أنا... أنا الذي لم أعد أفكر بالنساء الأخريات منذ أن التقيت ابنة ذلك التاجر."

نظر إلى السماء، بناءً على حساباته سيكون في "طريفة" قبل ساعة الغداء. وهناك سيستبدل كتابه بمجلد أكبر حجماً منه، وسيملأ قنينته خمراً... وسيحلق ذقنه... ويقص شعره... وهكذا سيكون جاهزاً تماماً للقاء الشابة. كان يرفض حتى مجرد فكرة أن يكون راعٍ أخر قد وصل قبله مع خرافه الكثيرة ليطلب يد الفتاة.

"وحدها إمكانية تحقيق الحلم تجعل الحياة مهمة." فكّر وهو ينظر من جديد إلى السماء... ويحثُّ الخطا، فقد تذكر للتو أن هناك امرأة عجوز في "طريفة" قادرة على تفسير الأحلام وهو في الليلة الماضية رأى نفس الحلم الذي كان قد رآه سابقاً.

قادت العجوز الشاب إلى نهاية منزلها حيث كانت حجرة مفصولة عن الردهة بستار بلاستيكي متعدد الألوان. كان أثاث تلك الحجرة مؤلف من صورة لقلب يسوع وطاولة وكرسيان. جلست العجوز على أحدهما ودعته للجلوس على

الآخر... ثم أخذت يده بين يديها وبدأت تصلي بصوت خافت جداً.

كان ذلك يشبه صلاة غجرية، فقد سبق له أن صادف الكثير من الغجر في طريقه... هم أيضاً كانوا يسافرون، لكن لم تكن الخراف ما يشغلهم... بل الاحتيال وخداع الناس، وهذا ما هو معروفٌ عنهم... إضافة إلى ما كان يُقال عن عهودهم مع الشيطان... واختطافهم للأطفال كي يجعلوهم عبيداً في مخيماتهم الغامضة... في أيام طفولته كان الراعي يبقى مذعوراً من فكرة أن يخطفه الغجر، والآن عندما أمسكت هذه العجوز بيديه عاوده ذلك الخوف القديم.

"لكن، يوجد هنا صورة قلب يسوع" فكّر محاولاً أن يُطمئن نفسه. كي لا تبدأ يداه بالارتجاف فتلاحظ العجوز خوفه. وبهدوء شديد تلا صلاة للرب."

"أمر مثير!!" قالت العجوز دون أن تُزيح نظرها عن يد الصبي... ومن جديد غرقت في صمتها."

رويداً رويداً، بدأ التوتر يسيطر على الشاب... وعكست يداه رغماً عنه شعوره، فلاحظت العجوز ذلك، وفي الحال سحب يداه.

"لم آتي إلى هنا من أجل قراءة الكف" قال الشاب والندم يملؤه لدخوله هذا المنزل. وخطر في باله لوهلة أن يدفع أجرة الاستشارة وينصرف دون أن يعرف شيئاً..."

بلا شك، لقد أولى هذا الحلم المتكرر أهمية أكثر مما يستحق.

ـ "أتيت تسألني عن الرؤى، قالت العجوز آنذاك، والرؤى لغة الله...

فإذا تحدّث الله بلغة العالم، يمكنني أن أفسر ذلك. لكن إذا تكلم بلغة روحك لن يقدر أحد غيرك أن يفهم. وفي كلا الحالتين عليك أن تدفع لي أجر الاستشارة."

شعر الشاب أن هذه خدعة جديدة، ومع ذلك قرر أن يُغامر... إنَّ الراعي معرّض دائماً لخطر الذئاب والجفاف... وهذا ما يجعل مهنته مثيرة جداً.

ـ "رأيت نفس الحلم مرتين... كنت فيه مع نعاجي في أحد المراعي... وفجأة يظهر طفل ويبدأ باللعب معها. في

الحقيقة، لا أحبذ أن يلهو أحد مع النعاج فهي تخاف من الغرباء... لكن لا أعرف كيف يتمكن الأطفال من اللعب معها دون أن يُرعبوها... تُدهشني قدرة هذه الحيوانات على معرفة عمر الكائن البشري."

- "عُد إلى حلمك، قالت العجوز. لدي قِدرٌ على النار... ومن ناحية أُخرى، ليس لديك الكثير من المال... فلا تأخذ كل وقتي."

- "يلعب الطفل مع النعاج لبعض الوقت، تابع الراعي وهو يشعر ببعض الارتباك. ثم يمسك بيدي ويقودني إلى أهرامات مصر."

توقف قليلاً عن الكلام، ليعرف إن كانت العجوز قد عرفت ما هي أهرامات مصر... لكنها لم تقل شيئاً.

- "هناك... أمام الأهرامات المصرية (لفظ هذه الكلمات بوضوح كبير كي تستطيع العجوز أن تفهم)، يقول لي الغلام: "إذا أتيت إلى هنا ستجد كنزاً دفيناً." وفي اللحظة التي يكاد فيها أن يطلعني على المكان بالتحديد، استيقظت في المرتين."

مرّت لحظات صمت لم تنبس العجوز خلالها بحرف... ثم أمسكت يدا الشاب من جديد وتفحصتهما بعناية. وبعد قليل قالت: "الآن، لن آخذ منك شيئاً... لكن حين تجد الكنز سآخذ عُشره."

ضحك الشاب من قناعتها تلك... إذاً، سيحتفظ بالأموال القليلة التي كان يملكها بفضل حلم يدور حول كنوز دفينة!!

أغلب الظن أن هذه المرأة العجوز الساذجة غجرية... فالغجر أغبياء.

- "حسناً، وكيف تفسرين هذا الحلم؟ سأل الشاب"

- "عليك أن تُقسم أولاً أنك ستعطيني عُشر الكنز مقابل ما سأقوله لك."

فأقسم الشاب لكن العجوز طلبت منه أن يكرر العهد وهو يثبت عيناه على صورة قلب يسوع.

- "إنها رؤية بلغة العالم وبإمكاني تفسيرها. لكنه تفسير صعب جداً ولهذا أستحق نصيبي مما ستجده...

والتفسير هو كالتالي: عليك أن تذهب إلى أهرامات مصر. وأنا حقيقةً لم أسمع بها من قبل لكن إن كان طفلاً

من أخبرك عنها فهي موجودة بالتأكيد. هناك عند تلك الأهرامات يوجد الكنز الذي سيجعل منك رجلاً ثرياً."

دُهش الشاب لما سمع... ثم ثارت أعصابه... لم يكن بحاجة لمقابلة هذه المرأة الساذجة كي تقول له بضع كلمات يعرفها مسبقاً. لكن لا بأس فهو لن يدفع لها شيئاً.

ـ "لو علمت أن هذا ما ستقولينه، لما أضعت وقتي."

ـ "أترى! لقد قلت لك أن حلمك صعب التفسير. لأن الغرابة كلها تكمن في الأشياء السهلة. والحكماء وحدهم من يمكنهم فهمها. وبما أنني لست واحدة منهم. يجب علي أن أعرف فنون أخرى: كقراءة الكف مثلاً."

ـ "وماذا عليَّ أن أفعل لأصل إلى مصر."

ـ "لن أحصل على أجري، ولن تكون هذه المرّة الأولى."

لم تُضف العجوز شيئاً على ما قالت... بل طلبت من الشاب أن ينصرف فقد أضاع وقتها بما فيه الكفاية.

انصرف الراعي والخيبة تملأ صدره وقرر ألا يؤمن بعد اليوم بالأحلام...

تذكّر أن لديه العديد من الأمور ليفعلها: فذهب وأحضر طعاماً ليأكله... واستبدل كتابه بآخر أكبر حجماً

منه. ثم ذهب وجلس على أحد المقاعد في الساحة ليتذوق على مهل الخمر الذي اشتراه للتو. أسرار الخمر كثيرة... وبإمكانه أن يرطبه (ينعشه) قليلاً في هذا الجو الحار...

عندما دخل إلى المدينة استودع خرافه عند صديق جديد له... يعرف الكثير من الناس في هذه الضواحي ولهذا السبب يحب السفر، فهو ما يتيح للمرء الفرصة دائماً لإيجاد أصدقاء جدد دون أن يكون مضطراً للبقاء معهم يوماً بعد يوم...

عندما نرى الأشخاص ذاتهم دائماً، كما هي الحال في المدرسة الإكليريكية نصل إلى حد الاعتقاد بأنهم جزء من حياتنا... وهكذا، بما أنهم يشكلون جزءاً منها يطالبوننا بتغييرها... فإذا لم نكن على ذلك النحو الذي تمنوا رؤيتنا به يستاؤون منّا.

يعتقد الناس جميعاً أنهم يعرفون تماماً كيف علينا أن نعيش. لكن ليس بينهم من يعرف كيف عليه هو أن يعيش. وهذا يشبه امرأة الأحلام الساذجة التي لا تعرف كيف تحول الأحلام إلى حقيقة.

قـرر ألاّ ينطلـق مـن جديـد مـع نعاجـه في البريـة قبـل أن تنحدر الشمس قليلاً... بعد ثلاثة أيام سيرى ابنة التاجر.

وفي انتظار ميول الشمس بدأ يقرأ الكتاب الذي أعطاه إياه خوري "طريفة"... كان هذا مجلد سميك يطرح منذ الصفحة الأولى مسألة الدفن... إضافة إلى أن أسماء الشخصيات فيه كانت معقدة جداً... ففكّر بأنه إذا ما ألف كتاباً ذات يوم، سيقدم الشخصيات فيه الواحدة تلو الأخرى... كي يجنب قُرَّاءه عناء حفظ الأسماء كلها دفعة واحدة.

وما إن استطاع التركيز قليلاً في القراءة (وكان ذلك متعة للغاية، لوجود دفن في الثلج الذي أعطاه إحساساً ببعض البرودة تحت هذه الشمس الحارقة، حتى جلس رجل عجوز بجانبه وأخذ يحدّثه.

ـ "ماذا يفعل هؤلاء الناس؟" سأل العجوز مشيراً إلى المارة في الساحة.

ـ "يعملون" أجابه الراعي بجفاء ثم تظاهر بالانهماك في القراءة، لكنه في الواقع كان يتخيَّل فوق صفحات ذلك الكتاب كيف سيجزُّ الخراف أمام ابنة التاجر لتتأكد أن

بإمكانه القيام بأشياء مهمة جداً. لقد تخيَّل هذا المشهد حتى الآن عشرات المرات... وكان دائماً فيه يرى الشابة مندهشة وهو يشرح لها كيف عليه أن يجزَّ الخراف من الخلف إلى الأمام.. وكان يجهد نفسه في تذكر بعض القصص الجميلة ليرويها لها أثناء الجز. ومعظم تلك القصص كانت مما قرأ في الكتب، لكنه حين سيرويها سيجعل من نفسه بطلها ولن تعرف الشابة الحقيقة فهي لا تعرف القراءة.

أصرَّ العجوز على الحديث وقال للشاب أنه تعب وظمآن، وطلب منه جرعة خمر. فقدّم هذا له القنينة على أمل أن يتركه ينعم بالهدوء. لكن العجوز لم يتوقف عن الثرثرة.. وفي هذه المرّة سأله عن الكتاب الذي بين يديه. فخطر في بال الراعي أن يُظهر بعض الفظاظة ويغير مقعده، لكنه تذكّر أن والده قد علّمه احترام المسنين. فلم يجد بُدّاً من إعطائه الكتاب لسببين: أولهما لأنه لا يعرف حقيقةً كيف يلفظ عنوانه. أمّا السبب الآخر فهو أمله أن يبدّل العجوز المقعد لوحده تفادياً للحرج إن كان لا يعرف القراءة. همهم العجوز وهو يتأمّل الكتاب من كل جوانبه وكأنه شيء غريب، ثم قال: "إنه كتاب مهم، لكنه ممل جداً."

تفاجأ الشاب.. إن هذا العجوز الثرثار يعرف القراءة!!.. لا بل سبق له وقرأ هذا الكتاب..!!. على كل حال، إن كان هذا الكتاب مملاً فعلاً... فما زال أمامه متسع من الوقت لاستبداله بآخر.

- "إنه كتاب يتحدث عن نفس الشيء الذي تتحدث عنه كل الكتب تقريباً، تابع العجوز. وهو عدم مقدرة الناس على اختيار أقدارهم الخاصة. وفي نهايته يجعلك تصدق أكبر خدعة في العالم."

- "وما هي أكبر خدعة في العالم." سأل الشاب مندهشاً.

- "في لحظة منح الحياة بالضبط نفقد السيطرة عليها، فحياتنا محكومة بالقدر منذ ذلك الحين. هذه هي أكبر خدعة في العالم."

- "لم يكن الأمر هكذا بالنسبة لي.. فقد أرادوا أن أكون كاهناً لكنني قررت أن أصبح راعياً."

- "هذا أفضل، قال العجوز. فأنت تحب السفر."

- "لقد تنبأ بأفكاري!!.." قال سنتياغو لنفسه.

طوال هذه المحادثة، كان العجوز يتصفح الكتاب الضخم دون أي نية بأخذه.

لاحظ الراعي ثيابه الغريبة: إنه زي عربي.. وهذا أمر غير مُستهجن في هذه المنطقة.. فلا يفصل إفريقية عن "طريفة" سوى بعض الساعات اللازمة لاجتياز المضيق الصغير بالقارب. وغالباً ما يأتي العرب إلى هذه المدينة للتسوق.. ويراهم الناس وهم يصلون بطريقة غريبة جداً عدة مرات في اليوم.

- "من أين أتيت؟" سأله الشاب.

- "من أماكن عدّة.."

- "لا يمكن للمرء أن يكون من عدّة أماكن. قال الصبي. أنا راعي وبإمكاني التواجد في مناطق مختلفة. لكنني في الأصل من منطقة واحدة: إنها مدينة قريبة من قصر قديم جداً... هناك ولدتُ"

- "حسناً، لتقل إني ولدتُ في "سالم""

لم يكن الراعي يعرف أين توجد "سالم" هذه لكنه لم يشأ أن يسأل كي لا يشعر بالحرج من جهله... بقي ينظر إلى الساحة لبعض الوقت.. كان الناس يأتون ويذهبون ويبدون

مشغولين جداً. لكن فضوله توقد فسأل العجوز أخيراً باحثاً عن أية إشارة تدله على تلك البلد: "وكيف تكون "سالم"؟"

- "كما هي منذ الأزل."

لم يدلّه هذا الجواب على شيء، لكن على الأقل عرف أن "سالم" ليست أندلسية وإلاّ لكان عرف هذه المدينة.

- "وما هو عملك أنت في سالم؟"

ـ "ماذا أشتغل في سالم؟!" قال العجوز مستغرباً، وانفجر ضاحكاً ثم قال:

- "لكنني ملك سالم. يا له من سؤال!"

ـ يا للناس!!.. ويا لغرابة ما يقولون!!.. إن الحياة مع النعاج الصامتة.. الراضية ببحثها عن الكلأ والماء.. أو مع الكتب ذات القصص التي لا تصدّق.. أفضل في بعض الأحيان بالنسبة للشاب من الحياة مع الناس الذين يقولون أشياء تجعله لا يعرف كيف سيتابع الحديث معهم.

ـ "أُدعى "ملكي صادق"، قال العجوز. كم خروف لديك؟"

- "لدي ما يكفي" أجاب الراعي.

أراد العجوز أن يعرف المزيد عن حياته فقال له: ـ "إذاً لدينا مشكلة... فليس بإمكاني مساعدتك طالما أنك تفكر بأن لديك ما يكفي من الخراف."

بدأ الشاب ينزعج.. فليس هو مَن طلب المساعدة.. ولا هو مَن أراد أن يشرب الخمر ويثرثر. ولا هو مَن اهتم بالكتاب..

ـ "أعد إليَّ هذا الكتاب، يجب أن أحضر خرافي لأتابع الطريق."

ـ "أعطني عُشرها، لأقول لك ماذا تفعل لتصل إلى الكنز الدفين."

تذكر الشاب حلمه... وفجأة أصبح كل شيء أمامه واضح: .. المرأة العجوز لم تأخذ منه أجراً، لكن هذا الرجل (الذي من الجائز جداً أن يكون زوجها) سينجح بانتشال ما هو أكثر بكثير مقابل إرشاد لا يمت للحقيقة بصلة.. في أغلب الظن هذا الرجل عجري أيضاً.

وقبل أن يتفوه الشاب بحرف، انحنى العجوز والتقط غصناً عن الأرض وأخذ يكتب على رمل الساحة. وفي لحظة انحنائه لمع شيء على صدره بحدّة كادت تُعمي الصبي. وما

إن لاحظ العجوز ذلك حتى أعاد لف المعطف على جذعه بسرعة مدهشة بالنسبة لعجوز في مثل عمره.

زال الانبهار من عيني الصبي، فاستطاع أن يرى بوضوح ما كتب ذلك الرجل العجوز...

فوق رمال الساحة الرئيسية لتلك المدينة الصغيرة. قرأ الشاب اسم والده واسم والدته.. وقصة حياته حتى هذه اللحظة.. قرأ عن ألعاب طفولته.. وليالي المدرسة الإكليريكية الباردة.. وعن أشياء لم يروها لأحد.. مثل تلك المرّة التي سرق فيها سلاح والده ليصطاد اليحامير[1]... ومثل تجربته الجنسية الأولى والوحيدة.

"أنا ملك سالم"، هذا ما كن العجوز قد قاله.

- "لكن، لماذا يثرثر ملك مع راعٍ؟" سأل الشاب نفسه متضايقاً وسارحاً في دهشة كبيرة.

- "هناك أسباب عديدة لذلك، لكن أهمها هو أنك قادر على إتمام أسطورتك الذاتية."

١- جمع (يحمور) وهو حيوان لبون مُجتر من فصيلة الغزلان.

لم يفهم الشاب معنى أسطورة ذاتية، فتنبأ العجوز من جديد وقال:

ـ "إنها دائماً ما تتمنى فعله، كل شخص منا يعرف في مطلع شبابه ما هي أسطورته الذاتية. ففي هذه المرحلة من الحياة يكون كل شيء واضح وممكن. ولا يخاف المرء من الحلم والتمني بأن يفعل كل ما يجب عليه في حياته... لكن مع مرور الوقت... تظهر قوة خفية وتحاول أن تثبت له أنه من المستحيل عليه أن يحقق أسطورته الذاتية.

لم يكن كلام العجوز بالنسبة للراعي الشاب ذو معنى كبير، لكنه أراد أن يعرف ماهية تلك "القوة الخفية".. وفكّر بينه وبين ذاته أن ابنة التاجر ستظل فاغرة الفاه عندما ستسمع هذا الكلام.

ـ "إنها قوة تبدو سيئة، لكنها في الواقع مَن يعلمنا كيف نحقق أسطورتنا الذاتية إنها مَن تصنع الأمل والإرادة. إن الحقيقة الأكبر في هذا العالم هو أنه: أيّاً تكن ومهما تفعل.. عندما تريد شيئاً ما بالفعل.. فإن هذا الشيء يتولد في "النفس الكلية" فهذا الشيء الذي رغبت به هو رسالتك على الأرض."

ـ "حتى لو كان ما نرغب به هو السفر فقط؟ أو الزواج من ابنة تاجر نسيج؟"

ـ "أو البحث عن كنز... إن "النفس الكلية" تتغذى من سعادة الناس أو تعاستهم... تتغذى من رغبتهم... من غيرتهم... وإتمام الأسطورة الذاتية هو الالتزام الوحيد للإنسان.. إن كل الأشياء ليست سوى شيء واحد. وعندما تريد شيء ما فإن العالم بأسره يتضافر ليتيح لك تحقيق ما ترغب به."

مرت لحظات صمت لم يتبادلا فيها كلمة واحدة، بل اكتفيا بالنظر إلى الساحة والمارة فيها. ثم بادر العجوز: ـ "لماذا تحتفظ بالخراف؟".

ـ "لأنني أحب الترحال".

فأشار العجوز إلى بائع فوشار بعربة حمراء في أحد أركان الساحة وقال: ـ "لطالما أحب هذا الرجل السفر أيضاً عندما كان طفلاً. لكنه فضل شراء كربولة صغيرة[1].. ليبيع الفوشار ويجمع المال خلال سنوات. ثم يقضي أسبوعاً في إفريقيا عندما يصبح عجوزاً. فهو يجهل أن بإمكانه أن يقوم دائماً بما يحلم به".

١- عربة صغيرة ذات عجلتين ومظلة.

ـ "كان بإمكانه أن يصبح راعياً." فكّر الشاب بصوت عالي.

ـ "بالتأكيد خطرت له الفكرة، قال العجوز. لكن لباعة الفوشار وضع اجتماعي أفضل من ذلك الذي للرعاة. فلديهم على الأقل سقف يتآوون تحته بينما ينام الرعاة في العراء. إن الناس يفضلون تزويج بناتهم من باعة فوشار على تزويجهم من رعاة."

انتفض الشاب لدى سماع ذلك ففي مدينة ابنة التاجر هناك بالتأكيد بائع فوشار.

ـ "باختصار إن الناس في هذه الأيام يفضلون معاشرة باعة الفوشار والرعاة على تحقيق أسطورتهم الذاتية."

قال العجوز هذا، ثم انشغل بتصفح الكتاب وقراءة صفحة منه.. وبعد قيل، قاطعه الراعي بنفس الطريقة التي قاطعه هو بها سابقاً:

ـ "لماذا تقول لي هذه الأشياء؟"

ـ "لأنك تحاول أن تعيش أسطورتك الذاتية.. والآن أنت على وشك التخلي عنها."

ـ "وهل تظهر دائماً في مثل هذه اللحظات؟"

ـ "ليس دائماً بهذا الشكل.. ومع ذلك فأنا لا أتخلى عنه أبداً. ففي بعض الأحيان أظهر على شكل فكرة جيدة قادرة على التخليص من مأزق. وفيما مضى سعيت ذات مرّة لتصبح الأمور أسهل... وهلّم جرا لكن معظم الناس لا يلاحظون شيئاً".

وروى كيف أنه في الأسبوع الماضي اضطر للظهور لمنقب على شكل حجر. فقد كان هذا الرجل قد انعزل عن العالم كلياً ليبحث عن الزمرد وأمضى خمس سنوات وهو يعمل في مجرى أحد الأنهار.. وخلال هذا الوقت كسر تسعمائة وتسع وتسعون ألف وتسعمائة وتسع وتسعون حجر في محاولة للعثور على الزمرد. لكن اليأس أصابه وأوشك على التخلي عن هدفه.. ولم يكن ينقصه آنذاك سوى حجر واحد كي يكتشف الزمردة. وبما أنه كان إنساناً يسعى وراء أسطورته الذاتية.. قرر العجوز أن يتدخّل.. فتحول إلى حجر تدحرج عند قدمي المنقب الغاضب والممتلئ بالخيبة.. فقذفه هذا بكل قوته وغضبه وأمله الخائب ولشدّة عنف تلك الرمية ارتطم الحجر بحجر آخر فكسره ليكشف عن أجمل زمرّدة في العالم.

ثم تابع العجوز قائلاً بمرارة: "يبكّر الناس في تحديد هدفهم في هذه الحياة، ربما لهذا السبب ذاته يتنازلون عنه مبكراً جداً... لكن هكذا هو العالم."

في تلك اللحظة تذكر الشاب أن الكنز الدفين كان نقطة انطلاق حديثهما هذا.

فقال العجوز: ـ "تخرج الكنوز من الأرض بفعل سيل جارف، ثم تعود لتُدفن فيها من جديد بفعل ارتفاع الماء ذاته. إن كنت تريد معرفة المزيد عن كنزك، عليك أن تتنازل لي عن عُشر قطيعك."

ـ "ألا يفي عُشر الكنز بالغرض؟"

أجاب العجوز مظهراً خيبته: ـ "إذا مضيت في الوعد بما لا زلت لا تملكه فإنك ستفقد الرغبة في الحصول عليه."

آنذاك أخبره الراعي أنه وعد الغجرية بعُشر الكنز.

ـ "الغجر!! قال العجوز متنهداً. إنهم أبالسة... على كل حال من الجيد لك أن تتعلّم أن كل شيء في الحياة بثمن. وهذا بالضبط ما سعى مجاهدو عهد الأنوار لتعلّمه."

أعاد الكتاب إلى الشاب ثم قال له: ـ "غداً، في مثل هذه الساعة. ستُحضر لي عُشر قطيعك.. وسأدلك بدوري

على كيفية التوصل إلى الكنز المدفون.. اذهب الآن.. هيّا وعُمت مساءً."

وعند إحدى زوايا الساحة افترقا.

حاول الشاب أن يعود إلى قراءته، لكنه لم يستطع التوصل إلى ذلك..

كان هائجاً ومتوتراً... فقد كان يعرف أن كل ما قاله العجوز صحيحاً. بحث عن البائع المتجول واشترى منه كيس فوشار وتساءل أثناء ذلك إن كان عليه أن يخبره بما قاله له العجوز "من الأفضل أحياناً أن نترك الأمور كما هي." هذا ما فكّر به وبناءً عليه لم يقل له شيئاً. لو أخبره لأمضى البائع ثلاثة أيام من التفكير والحيرة لكن وفي النهاية فقد اعتاد كثيراً على عربته الصغيرة.

لقد وفّر عليه هذه الحيرة المعذبة. وأخذ يتجول في أرجاء المدينة إلى أن وصل إلى الميناء.. وهناك كان بناء صغير فيه عدد من النوافذ يقطع الناس فيها التذاكر. مصر في إفريقيا.

ـ "هل تريد؟" سأله الموظف. فأجابه مبتعداً: ـ "ربما غداً"... إذا ما باع أحد خرافه فإنه سيتمكن من الوصول إلى الجانب الآخر للمضيق... لكن هذه الفكرة أرعبته.

ـ "حالمٌ آخر.. قال الموظف لزميله بينما كان الشاب يبتعد. ليس لديه ما يدفعه أجراً لسفره."

عندما كان واقفاً أمام الكوة فكّر بخرافه وشعر بالخوف من الذهاب لإحضارها... خلال هاتين السنتين كان منشغلاً كلياً بالعناية بها، تعلّم كيف يجزها وكيف يعتني بها في مرضها.. وكيف يحميها من الذئاب.. وأصبح يعرف كل حقول ومراعي الأندلس.. ويعرف ثمن الشراء والبيع الحقيقيان لكل دابة من دوابه.

وفي نهاية الأمر قرر الذهاب إلى إسطبل صديقه، سالكاً الطريق الأطول. هنا أيضاً، في هذه المدينة يوجد قصر، أراد الصعود إلى التلة المفروشة بالحصى ليصل إليه ويجلس على سوره. من فوق يستطيع أن يرى إفريقيا التي جاء منها المغاربة هذا ما أخبره به أحدهم فيما مضى...

لقد احتل هؤلاء المغاربة كل إسبانيا تقريباً لوقت طويل. إنه يكرههم فهم من أحضروا الغجر.

من فوق ذلك السور استطاع أيضاً رؤية القسم الأكبر من المدينة وأن يحدد موقع الساحة بالضبط حيث تحدّث مع الرجل العجوز.

"لعن الله الساعة التي التقيت فيها بهذا العجوز" هذا ما قاله لنفسه. فقد كان ذهب فقط لمقابلة امرأة تعرف كيف تفسر الأحلام. لكن لا تلك المرأة ولا هذا العجوز، أبديا اهتماماً لكونه راعياً... إنهم من القلائل في العالم الذين لم يعودوا يصدقون شيئاً في الحياة ولا يدركون أن الأمر ينتهي بالرعاة إلى التعلّق بمواشيهم. كان يعرف كل واحدة من نعاجه حق المعرفة: يعرف مَن تعرج... ومَن ستضع بعد شهرين... وأيها الأكثر كسلاً... وكان بارعاً في جزها ويعرف كيف يذبحها...

إذا ما قرر الرحيل ذات يوم... فإن هذه النعاج ستعاني بُعاده.

أخذت الريح تصفر. كان يعرف هذه الريح، إنها شرقية فمعها كانت تأتي عشائر الكفار.

قبل أن يعرف "طريفة" لم يكن يتخيّل أبداً أن إفريقيا قريبة إلى هذا الحد. إنه قريب من الخطر للغاية: فباستطاعة المغاربة أن يغزو البلاد من جديد متى يشاؤون.

فكّر الشاب بينما اشتدّ صفير الريح: "ها أنا ذا بين نعاجي والكنز." يجب عليه أن يأخذ قراراً.. أن يختار بين شيء اعتاده وشيء يحب أن يملكه. وهناك أيضاً ابنة التاجر، لكنها ليست بأهمية النعاج فهي غير مرتبطة به. كان متأكداً من أنها عندما تره بعد غد... لن تنتبه إلى ذلك: بالنسبة لها كل الأيام متشابهة، وعندما تتشابه الأيام على هذا النحو.. يعني أن الناس قد توقفوا عن ملاحظة الأشياء الجيدة التي تمر في حياتهم كلما عبرت الشمس قبة السماء.

"تركت أبي وأمي وقصر مدينتي.. وها هم قد اعتادوا على ذلك.. وأنا أيضاً اعتدت.. والنعاج بدورها ستعتاد على ذلك" قال بنفسه.

نظر إلى الساحة، كان يرى من الأعلى البائع المتجول وهو يبيع الفوشار.. لقد وصل الآن شاب وفتاة وجلسا على ذات المقعد الذي جلس عليه هو مع العجوز. تبادلا قبلة طويلة.

تمتم لنفسه "بائع الفوشار.." لكنه لم ينهي الجملة لأن الريح اشتدت أكثر فأكثر.. وكان يحس بشدتها على وجهه.. إنها تأتي بالمغاربة، دون شك، لكنها تحتمل أيضاً رائحة الصحراء والنساء المحجبات. إنها تحمل عرق ودماء.

أولئك الرجال الذين انطلقوا ذات يوم سعياً وراء المجهول، سعياً وراء الذهب.. وراء المغامرات.. والأهرامات.

بدأ الشاب يحسد تلك الريح على حريتها.. وفي نفس الوقت ازدادت قناعته أن بإمكانه أن يكون مثلها.. فلا شيء يمنعه من ذلك إلا هو ذاته.

إن النعاج.. وابنة التاجر والحقول الأندلسية ليسوا جميعاً سوى مراحل من أسطورته الذاتية.

عند ظهيرة اليوم التالي التقى الشاب والعجوز.. وكان هذا الأول يصطحب معه ست خراف وهي عُشر قطيعه بناء على ما اتفقا عليه في الأمس.

قال الشاب: ـ "يا للدهشة!! لقد اشترى صديقي القطيع مباشرة.. فلطالما حلم كما قال لي، بأن يكون راعياً.. إن هذا فأل خير."

ـ "هكذا تسير الأمور دائماً.. قال العجوز. إننا ندعو هذا بالمبدأ المناسب. فإذا لعبت مثلاً بورق اللعب للمرة الأولى.. فأنك ستربح دون شك، لأن ما يُدعى بحظ المبتدئ سيكون إلى جانبك."

ـ "ولماذا هذا؟"

ـ "إن الحياة تريدك أن تعيش أسطورتك الذاتية."

أخذ العجوز يتفحص الخراف الست، ولاحظ أن إحداها تعرج. لكن الصبي أخبره أن ذلك غير مهم.. فهذه الدابة هي الأكثر ذكاءً وصوفاً بين البقية.

ـ "أين هو الكنز؟"

ـ "إنه في مصر قرب الأهرامات."

انتفض الشاب... كانت تلك كلمات المرأة العجوز ذاتها لكنها على الأقل لم تأخذ شيئاً.

وفي الحال استأنف العجوز: "كي تصل إلى الكنز.. عليك أن تنتبه للمؤشرات، فقد خط الله لكل واحد منها الطريق الذي يجب عليه اتباعه.. وما عليك الآن سوى أن تقرأ ما كتب الله لك."

وقبل أن يقول الشاب شيء، أخذت فراشة ليل تحوم بينه وبين العجوز. فتذكر ما كان جده يقول عن الفراشات، عندما كان صغيراً، بأنها علامة حظ مثلها مثل صراصير الليل.. والجرادة الخضراء.. والسحلية الرمادية الصغيرة[1] والنَفَل[2] ذات الأوراق الأربعة.

قال العجوز الذي استطاع أن يقرأ أفكاره ثانية: ـ "هذا بالضبط مثلما علمك جدك، هذه هي الإشارات." ثم فتح معطفه الملتف حول جسمه، وكان الشاب لا يزال متأثراً باللمعان الذي بهر عيناه عشية أمس..

كان العجوز يرتدي قلادة من الذهب المصمت المرصعة بالأحجار الكريمة.

إنه ملك بالفعل.. وربما يكون متنكر هكذا كي يتجنب خطر قطاع الطرق. وفي الحال نزع العجوز حجراً أبيض وآخر أسود من قلادته وقدمها للشاب قائلاً: "خذ هذان الحجران.. إنهما يُدعيان "أوريم" و "توميم". الأسود يعني "نعم" والأبيض يعني "لا". عندما لا تتوصل إلى الاستدلال على

١- نوع من الزواحف من فصيلة السقايات.

٢- نوع من الأعشاب ورقتها مؤلفة عادةً من ٣ وريقات.

الإشـارات سيـساعدانك. ولكـن يجـب أن يكـون سـؤالك موضوعياً دائماً.. بمعنى آخر حاول أن تأخذ قراراتك بنفسك الكنـز موجـود بجانـب الأهـرامـات، وأنـت تعـرف هـذا الآن، لكن عليك أن تدفع ثمناً الخراف الست... فأنـا مَن سـاعدك في أخذ القرار."

خبـأ الـشاب الحجـران في جعبتـه، مـن الآن فـصاعداً سيأخذ قراراته بنفسه.

- "لا تنسى أن كل الأشياء ليست سوى شـيء واحـد... لا تنسى لغة الإشـارات.. وأهـم شـيء ألا تنسى أن تسعى لإتمـام أسـطورتك الذاتيـة.. وقبـل أن أتركـك أود أن أقـص عليـك حكاية قصيرة.."

كان هناك تاجر أراد أن يبعث ابنه إلى الأكثر حكمة بـين النـاس، كـي يتعلم منـه سـر الـسعادة.. فـانطلق الـصبي ومشى أربعين يوماً في الصحراء ليصل أخيراً إلى قصر جميـل في قمة جبل. كان الحكيم الذي يبحث عنه يعيش هناك.

وبـدل أن يلتقـي برجـل متـصوف مقـدس.. دخـل بطلنـا إلى صـالة تعـجُّ بالحركـة: تُجـار يـدخلون ويخرجـون.. وأنـاس يتحـدثون.. وفي أحـد الأركـان فرقـة موسـيقية تعـزف ألحانـاً

عذبة.. كما كان هناك مائدة تحوي ما لذَّ وطاب من مأكولات تلك البقعة من الأرض..

كان الحكيم مشغولاً بالحديث مع هؤلاء وأولئك فاضطر الشاب إلى الانتظار مدّة ساعتين حتى يأتي دوره. وأخيراً تكلم الشاب وشرح للحكيم أسباب زيارته، وكان هذا الأخير يُصغي بانتباه.. وحين أنهى الصبي كلامه قال الحكيم أن لا وقت لديه الآن كي يكشف له سر السعادة، واقترح عليه أن يتنزه في القصر، ثم يعود ليراه بعد ساعتين.

ـ "لكن قبل أن تتصرف أود أن أطلب منك معروفاً، قال الحكيم وهو يقدّم للشاب ملعقة صغيرة فيها نقطتين من الزيت. خلال تنزهك احمل هذه الملعقة بيدك، واحرص على ألا ينسكب الزيت منها."

بدأ الشاب يتنزه ويصعد أدراجاً ويهبط أُخرى دون أن يزيح نظره عن الملعقة.

وعندما انقضت الساعتين عاد ليمثل بين يدي الحكيم. فسأله:

- "هل رأيت فُرض غرفة الطعام المطرزة؟.. وهل تأمّلت الروضة الغنّاء التي استغرق شيخ البساتين عشر سنوات ليبدعها؟.. وهل لاحظت أروقة مكتبتي الرائعة..؟"

ارتبك الشاب واعترف أنه لم ير شيئاً من كل هذا، فقد كان همه الوحيد ألاّ تنقلب نقطتي الزيت اللتان استأمنه عليهما الحكيم.

- "عُد إذاً.. وتعرّف على عجائب عالمي، قال الحكيم. فلا يمكننا أن نثق برجل لا يعرف المنزل الذي يسكنه."

أخذ الشاب الملعقة وبسكينة أكبر بدأ يتجول في القصر مركزاً انتباهه في هذه المرة على كل الأعمال الفنية التي كانت تُغطي الجدران والأسقف. رأى الحدائق والجبال المحيطة.. وتمتع برقة الزهور.. واندهش للدقة التي وزّع بها كل عمل فني في المكان المناسب له. وعند عودته إلى الحكيم، روى بالتفصيل كل ما شاهده.

- "لكن أين هما نقطتا الزيت اللتان ائتمنتك عليهما؟" سأله الحكيم.

آنذاك نظر الشاب إلى الملعقة فاكتشف أنه قد أسقطهما. فقال له حكيم الحكماء:

ـ "هُنا تكمن النصيحة الوحيدة التي سأعطيك إياها" سرُّ السعادة يكمن في أن تنظر إلى كل عجائب الدنيا.. لكن دون أن تنسى نقطتي الزيت اللتان في الملعقة."

لم يقل الراعي شيئاً، لقد فهم المغزى من قصة الملك العجوز. يمكن للراعي أن يحب السفر لكن دون أن ينسى نعاجه أبداً.

نظر العجوز إليه.. ثم قام ببعض الحركات بيديه المبسوطتين فوق رأسه.. ثم جمع خرافه ومضى.

على مرتفع يبرز عن مدينة "طريفة" الصغيرة، تربعت قلعة قديمة بناها المغاربة في الماضي.. ومن يجلس على أسوارها يستطيع أن يرى الساحة وبائع الفوشار وجزء من إفريقيا..

في مساء ذلك اليوم، كان "ملكي صادق" ملك "سالم" جالساً على متاريس تلك القلعة. وكانت الريح الشرقية تحتف بوجهه فيشعر بقوتها..

أمّا النعاج الست فلم تكن تتوقف عن الحركة بقربه.. هائجة.. قلقة بسبب تغيير سيدها وكل هذه الاضطرابات.. وهي التي لا هم لها سوى الكلأ والماء.

راقب القارب الصغير وهو يبتعد عن المرفأ.. لن يرى الراعي الشاب مجدداً بعد أن جعله يدفع له عُشر ما يملك.. تماماً مثلما لم يرَ "إبراهيم" ثانية.. وليس هذا سوى ما صنعت يداه.

الآلهة لا يتمنون شيئاً، لأنه ليس لديهم أساطير ذاتية.. إلاّ أن ملك "سالم" كان يتمنى من كل قلبه النجاح للشاب.

- "للأسف! سينسى اسمي قريباً.. كان عليَّ أن أكرره أمامه عدّة مرات.. ليتمكن من القول إنني "ملكي صادق" ملك "سالم" هذا ما دار في بال الشيخ.. وما شعر بالخجل منه. فرفع عيناه إلى السماء وقال: "أعرف أن هذا ليس سوى غرور وباطل كما قلت أنت ذاتك ياإلهي.. لكن الملك القديم يحتاج لأن يشعر ببعض الاعتزاز بالنفس."

قال الشاب في نفسه: "إفريقيا! يا لها من بلد غريبة."

كان جالساً في أحد المقاهي من ذلك النوع المنتشر جداً في إفريقيا.. وقد رأى الكثير منه وهو يجتاز أزقة المدينة الضيقة. كان الرجال يدخنون غليوناً ضخماً يمررونه من فم إلى آخر. وخلال عدة ساعات رأى رجالاً يتمشون وهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض.. ونساء مستورات الأوجه..

وكهنة يصعدون إلى قمم أبراج عالية ويبدؤون بالغناء، بينما يركع الناس من حولهم ويضربون رؤوسهم بالأرض.

- "إنها طقوس الكفار" قال لنفسه.

فعندما كان صغيراً، كان في كنيسة قريته تمثال للقديس جاك الأعظم وهو يمتطي صهوة حصانه ويمسك سيفاً بيده.. كان سانتياغو ينظر إليه دائماً.. وكان هذا القديس في وضعية يدوس فيها بحوافر حصانه أشخاص يشبهون هؤلاء الناس. لطالما شعر حينها بالضيق والخوف، فقد كانت نظرة الكفرة مخيفة.

في عجلة هذا السفر الطويل، نسي الراعي أمر صغير لكن يمكنه أن يؤخر وصوله إلى الكنز: إنَّ الناس هنا، في هذا البلد يتكلمون العربية.

اقترب صاحب القهوة فأشار الراعي بإصبعه على مشروب رآه يقدّمه لأحد الزبائن. إنه شاي.. شاي مرٌّ جداً.. كان يفضل أن يشرب الخمر لكن الوقت الآن غير مناسب للاهتمام بمثل هذه الأمور.. ومن الأفضل له أن يفكّر بكنزه وكيف سيحصل عليه.

إنَّ بيع الخراف أمّن له مبلغاً لا بأس به نسبياً. وهو يعرف مفعول المال الغريب. فمعه لا أحد يشعر بالوحدة تماماً. وبفضله سيتمكن خلال وقت قصير.. ربما بضعة أيام، من الوصول إلى الأهرامات. إنه واثق من الرجل العجوز..

فلم يكن هذا الأخير بحاجة للكذب كي يحصل على ست خراف وهو الذي يلمع الذهب فوق صدره. وحين كان القارب الصغير يجتاز المضيق كان كلام العجوز عن الإشارات يتردد في ذهن الشاب... لقد فهم هذا الكلام تماماً وعرف ما يقصده بالإشارات ـ فخلال كل الوقت الذي قضاه مع خرافه في البرية.. اعتاد على قراءة الإشارات في الأرض والسماء التي ترشده إلى الطريق الصحيح... فقد كان يعرف مثلاً أن ذلك الطائر يكشف عن وجود ثعبان في الجوار.. وأن تلك الجُنيبة[1] تدلُّ على وجود الماء على مسافة بضعة كيلو مترات.. لقد علّمته الخراف كل هذا.

ـ "إن كان اللّه يَهدي الخراف فعلاً إلى طريقها.. فإنه سيهدي الإنسان أيضاً."

١- كل شجرة علوها متر أو أكثر بقليل تبقى صغيرة ولو شاخت

قال الشاب في نفسه فأحسَّ بالاطمئنان، وفي الحال بدا الشاي له أقل مراراً.

- "مَن أنت؟" سمع صوتاً يسأله بالإسبانية.. فانفرجت أساريره، لقد فكّر بالإشارات فإذا بشخص يظهر له.

- "كيف حدث أنك تتكلم الإسبانية؟" سأل الشاب.

كان القادم الجديد صبياً في مثل قامته وعمره تقريباً.. يرتدي لباس الغرب.. لكن لون بشرته يدلُّ على أنه من هذه المدينة.

- "معظم الناس هنا يتكلمون الإسبانية.. فإسبانية قريبة جداً، لا يفصلنا عنها سوى سفر ساعتين.."

- "تفضّل بالجلوس واطلب لنفسك شيئاً على حسابي.. واطلب لي خمراً فقد قززت من هذا الشاي المر."

- "لا خمر هنا.. لأن الدين يحرمه."

ودار حديث بينهما أخبره فيه الراعي بأن عليه أن يصل إلى الأهرامات..

وكان على وشك أن يخبره عن الكنز.. لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.. فهذا العربي سيطالبه بالتأكيد بحصّة لقاء

أخذه إلى هناك، لقد تذكّر ما قاله العجوز عن موضوع العلامات.

- "أريدك أن تأخذني إلى هناك، إن كان هذا ممكناً.. وبالمقابل سأدفع لك أجراً كدليل."

- "هل لديك فكرة عن طريق الذهاب إلى هناك؟"

في هذه اللحظة، انتبه الشاب إلى وجود صاحب القهوة بالقرب منهم يسترق السمع إلى حديثهم.. فانزعج من ذلك بعض الشيء.. لكنه الآن وجد دليلاً ولن يضيع هذه الفرصة من يده.

- "عليك اجتياز الصحراء المقفرة برمتها.. قال القادم الجديد.. ولتفعل ذلك يجب أن تدفع المال.. فهل لديك ما يكفي منه؟"

وجد الشاب هذا السؤال فضولياً جداً.. لكن ثقته بالرجل العجوز الذي كان قد قال له إنه عندما نريد شيئاً ما حقاً.. فإن كل العالم يتضافر لمساعدتنا على بلوغه، جعلته يُخرج المال من جيبه ويريه لرفيقه الجديد. تقدّم صاحب القهوة ونظر بدوره ثم تبادل مع الشاب العربي بعض الكلمات بلغتهم.. بدا خلال ذلك صاحب القهوة غاضباً..

ـ "هيّا بنا.. يجب ألاّ نبقى هنا" قال الشاب العربي.

ازدادت طمأنينة الراعي ونهض ليدفع ما توجّب عليه، لكن صاحب القهوة أمسكه من ذراعه وأخذ يُلقي عليه خطاباً طويلاً لم يفهم منه شيئاً.. ومع أن القوة لم تكن تنقصه إلاّ أنه لم يبدي حراكاً فهو الآن في بلد غريب.. فما كان الأمر من صاحبه الجديد إلاّ أن دفع صاحب القهوة عنه وقاده (أي للراعي) إلى الخارج.

ثم قال له: ـ "كان طامعاً بأموالك. "طنجة" ياصاح.. لا تشبه باقي مدن إفريقيا.. إنها ميناء، والموانئ كلها أوكار لصوص.."

سُرَّ الشاب لوجود هذا الصديق الجديد الذي يمكن الاعتماد عليه، فها هو قد هبَّ وساعده عندما وجده في وضع حرج. أخرج النقود من جيبه وعدّها.

قال الآخر وهو يأخذ المال: ـ "يمكننا أن نصل غداً إلى الأهرامات.. لكن علينا أولاً أن نشتري جملين."

معاً طاف الشابان في شوارع "طنجة" الضيقة.. كانت بسطات بيع البضائع موزعة في كل الزوايا والأركان.. وفي نهاية مطافهما وصلا إلى ساحة كبيرة حيث كان السوق..

كـان هنـاك آلاف الأشـخاص يتحـادثون ويبيعـون ويـشترون المنتجـات البقوليـة والخنـاجر والـسجاد.. وغلايـين مـن كـل الأنواع.. وبالرغم من كل هـذا حـاول الشـاب أن يُبقـي عينيـه معلقتـان علـى رفيقـه الجديـد.. وألاّ يغفـل عنـه لحظـة.. فكـل أموالـه الآن بـين يديـه.. فكـر في استرجاعها.. لكنـه تراجـع لأن في ذلك إخلال باللباقة.. إنـه الآن في بلـد غريـب ولا يعـرف كيف عليه أن يتصرف هنا. ربما ليس سوى أن يراقبه.. فهذا الجديد أكثر قوّة منه.

فجأة!! في وسط كل هذه الفوضى.. وقعت عينـا الـشاب علـى سـيف لم يـرَ مثلـه مـن قبـل.. غمـده مـصنوع مـن الفـضة الخالـصة، ومقبـضه أسـود، مرصّـع بالأحجـار الكـريمـة.. كان سيفاً رائعاً بالفعل.. فقطع الشاب عهداً على نفسه بـأن يشتريه في طريق عودته من مصر. ثم التفت لصاحبه وقـال: ـ "اسـأل البـائع كـم ثمنـه".. وفي الحـال أدرك مـا حـصل.. لقـد شرد لمدّة ثانيتين وهو يتأمل السيف.

انقبض قلبه وكأن صدره قد ضاق فجأة ولم يعد يتـسع له.. كـان خائفاً من النظر حوله فقد كـان يعرف مـا ينتظـره. للحظة لم يُزح عيناه عن السيف الجميل.. ثم تشجَّع والتفت..

كل شيء كان على حاله.. السوق، والناس الذين يأتون ويذهبون وينادون ويبيعون السجاد والبندق والخس بجانب الأطباق النحاسية.. والرجال الذين يمسكون بأيدي بعضهم البعض.. والنساء المحجبات.. ورائحة المأكولات الغريبة.. وكل الأشياء الأخرى كانت موجودة.. باستثناء صاحبه.. هو فقط لم يكن له أثر.

أراد أن يقنع نفسه بأنهما قد أضاعا بعضهما بالصدفة.. فقرر البقاء بمكانه على أمل أن يعود الآخر..

بعد قليل صعد شخص إلى أحد الأبراج العالية وبدأ يُغني: فركع كل الأشخاص الذين كانوا هناك وأخذوا يضربون جباههم بالأرض ويغنون.. ثم هبوا معاً كقرية نمل ليجمعوا أغراضهم وينصرفوا.

الجميع تركوا المكان.. حتى الشمس.. راقبها الشاب لبعض الوقت وشهد رحيلها خلف البيوت البيضاء المحيطة بالساحة. عند شروق هذه الشمس كان في قارة أخرى مع خرافه الستين، وكان على موعد مع شابة. في صباح هذا اليوم ذاته كان لا يزال راعياً.. وكان يعرف كل ما سيحصل معه عندما سيمشي في البريّة.. وها هو الآن عند

غروب الشمس.. في بلد غريب لا يستطيع حتى أن يفهم لغة الناس فيها. لم يعد الآن راعياً.. ولم يعد لديه شيء ولا حتى النقود اللازمة ليعود أدراجه ويبدأ من جديد.

- "كل هذا بين إشراقة شمس وغروبها!!" قال متأسفاً لحاله.. إن الأمور في هذه الحياة تتغيّر برمشة عين فلا نجد الوقت حتى لنعتاد عليها.

كان محرجاً من البكاء.. لم يبكي مطلقاً أمام نعاجه.. ولكن ساحة السوق خاوية.. وهو بعيد عن وطنه.

بكى.. وبكى.. وبكى بحرقة لأن الله ظالم... بكى لأنه يكافئ الناس الذين يؤمنون بأحلامهم بهذه الطريقة. - "عندما كنت مع خرافي كنت سعيداً، أتقاسم سعادتي مع كل ما يحيط بي.. كان الناس يلحظون وصولي ويستقبلونني بشكل جيد. أنا الآن حزين.. إني تعيس.. ماذا سأفعل؟!.. لكن لا، من الآن فصاعداً سأكون أكثر قسوة.. ولن أثق بأحد لأن شخص ما غدر بي وخانني.. كم سأكره منذ اليوم كل مَن وجدوا كنوزاً مخبأة لأنني لم أجد كنزي.. وسأسعى بكل قوتي لأحافظ على القليل الذي أملكه. فما زلت ضعيفاً جداً على إزعاج هذا العالم."

فتح جعبته ليرى إن كان قد بقي معه قطعة من الشطيرة التي كان يتناولها على متن القارب. لكنه لم يجد إلاّ الكتاب السميك والمعطف والحجران اللذان كان الشيخ قد أعطاه إياهما. برؤيته لهما شعر براحة كبيرة.. لقد قايض ست نعاج بحجران كريمان مأخوذان من قلادة ذهبية.. الآن يمكنه أن يبيعهما ليشتري بثمنهما بطاقة العودة.

"ابتداءً من اليوم سأكون أكثر دهاءً." هذا ما قرره الشاب وهو يسحب الحجران من جعبته ليدسهما في أعماق جيبه. إنه في الميناء والشيء الوحيد الصحيح الذي قاله ذلك الشخص هو أن الميناء وكر لصوص.

الآن فهم معنى الجهود اليائسة التي قام بها صاحب القهوة. لقد كان ذلك الرجل يحاول أن يفهمه ألا يثق بالشاب العربي.

- "إنني كالآخرين: أرى العالم كما أتمنى أن يكون.. وليس كما هو حقيقةً."

بقي يتأمل الحجران.. ثم داعب كل واحد منهما وشعر بحرارته وسطحه الأملس إنهما الآن كنزه.. ومجرّد لمسهما يمنحه شيء من الاطمئنان. إنهما يذكرانه بالرجل العجوز.

ما زالت كلمات العجوز تتردد في ذهنه: "عندما تريد شيئاً حقاً فإن كل العالم يتضافر ليسير على نحو يساعدك في الوصول إلى مبتغاك."

كيف يمكن لذلك أن يكون صحيحاً؟ فها هو وسط ساحة خاوية دون نعاج يحرسها ليلاً.. ودون نقود تساعده.. لكن الحجران يشكلان برهاناً قاطعاً على أنه التقى حقاً بملك.. ملك يعرف سيرته الذاتية.. وما فعله بسلاح أبيه.. ويعرف تجربته الجنسية الأولى.

ـ "هذان الحجران يساعدان على التنبؤ.. إنهما "أوريم" و"توميم"."

أعادهما إلى جعبته، وقرر أن يقوم بتجربة.. وتذكر ما قاله العجوز بأن يطرح سؤالاً واضحاً لأن الحجران لا ينفعان إلا إذا كان الشخص يعرف ما يريد.

استعدَّ الشاب وسأل إن كانت رعاية الشيخ وبركته ما تزالان معه.. ثم سحب واحد من الحجران.. إنه "نعم".

ـ "هل سأجد كنزي؟" سأل ومدَّ يده إلى الجعبة وكاد يمسك بأحد الحجرين عندما انزلقا من ثقب كان في القماش. لم يلحظ من قبل أن جعبته ممزقة..

انحنى ليلتقطهما ويعيدهما إلى الجعبة من جديد.. لكن برؤيته لهما على الأرض، تذكر جملة جديدة: "اعمل على احترام الإشارات واتباعها."

إشارة!. أخذ الشاب يضحك لوحده.. ثم التقط الحجران وأعادهما إلى جعبته.. لم يكن ينوي رقعها.. بإمكان الحجران أن يفرا متى شاءا من هذا الثقب. الآن عرف أن هناك أشياء يجب علينا ألا نسأل عنها كي لا نفر من قدرنا الخاص.

قال لنفسه: ـ "لقد وعدت أن آخذ قراراتي الخاصة بنفسي." لكن الحجران قالا بأن العجوز قريب منه دائماً، وهذا الجواب أعطاه بعض الثقة.

تأمَّل السوق الفارغة مجدداً.. لكن في هذه المرّة. لم يشعر باليأس الذي كان يحس به منذ قليل، ولم يعد هذا العالم غريباً بالنسبة له، إنه عالم جديد.

بالرغم من كل هذا الذي حصل.. تعرّف على بلاد جديدة، وهذا بالضبط ما كان يسعى له.. حتى إن لم يكن مكتوباً له أن يصل إلى الأهرامات.. فإنه على الأقل قد وصل إلى أماكن بعيدة لم يصل إليها راعٍ من معارفه.

- "آه لو يعرفوا كم يوجد من أشياء أخرى مختلفة، لا يفصلهم عنها سوى أقل من ساعتين في القارب!!"

أخذ العالم الجديد في عينيه شكل سوق مقفرة.. لكنه كان قد رآه يعجُّ بالحياة، ولن ينسى ذلك أبداً. تذكر السيف الذي دفع ثمن تأمّله للحظة باهظاً جداً، لكنه أيضاً لم يكن قد رأى شيئاً مثله من قبل.. فجأة أحس أن بإمكانه أن ينظر إلى العالم إما بعيني ضحية تعسة لسرقة خسيسة.. أو بعيني مغامر يسعى وراء الكنز." فكَّر.. ثم غطّ منهوكاً في نوم عميق.

في صبيحة اليوم التالي استيقظ عندما هزّه أحدهم من كتفه.. لقد نام في وسط ساحة السوق الفارغة، وها هي الآن تستعيد نشاطها.

نظر حوله باحثاً عن خرافه. وما هي إلّا لحظة حتى تذكر أنه الآن في عالم آخر.. وبدل أن يشعر بالحزن كان سعيداً.. لم يعد مضطراً للسعي وراء الكلأ والماء..

وبإمكانه الآن الانطلاق بحثاً عن كنزه.. لم يكن في جيبه قرش واحد.. لكن في قلبه وعقله كا يسكن الإيمان بالحياة. لقد اختار أن يسهر الليالي، وأن يكون مغامراً مثل

شخصيات الكتب التي كان قد اعتاد قراءتها. أخذ يتمشى في الساحة على مهل.. كان الباعة يخرجون بضائعهم ويمدون بساطتهم.. فساعد أحدهم وكان بائع سكاكر. كانت ابتسامة ذلك الرجل تختلف عن ابتسامات الآخرين: كانت تعكس حبوره واستبشاره.. وإقباله على الحياة.. وتنمُّ عن استعداده لمواجهة عمل يوم جيد.. لقد أثارت هذه الابتسامة في نفسه ذكرى الملك العجوز.. ذلك الرجل الغريب الذي عرفه.

- "ليس السفر هو من يدفع هذا البائع لصنع الحلوى، ولا الزواج من ابنة تاجر... بل هو حبه لهذه المهنة." هذا ما فكّر به الشاب.. وإنه قادر مثل الملك العجوز على معرفة ما إذا كان الشخص قريباً أم بعيداً عن أسطورته الذاتية وذلك فقط بالنظر إليه: - "هذا أمر سهل، لكني لم ألحظ وجوده داخلي من قبل."

عندما انتهيا من إقامة البسطة.. قدّم له الرجل الطيب أوّل قطعة حلوى صنعها.. فأكلها الشاب بمتعة كبيرة ثم شكره ومضى في دربه..

بعد أن قطع مسافة أخذته فكرة أن البسطة قد مُدّت من قبل شخصان أحدهما يتكلم العربية والآخر الإسبانية.. ومع ذلك استطاع كل واحد منهما أن يفهم الآخر تماماً.

ـ "هناك لغة فيما وراء الكلمات.. لقد تعلمت ذلك من النعاج.. وها أنا ذا الآن أطبِّق ما تعلمته مع الناس."

إنه منشغل في اكتساب أشياء جديدة ومتنوعة.. أشياء لديه خبرة مسبقة فيها.. ومع ذلك فهي جديدة، لأنها وجِدَت على طريقه دون أن ينتبه إليها. وذلك لأنه كان قد اعتاد على هذه الأشياء.

ـ "لو كان بإمكاني فك رموز هذه اللغة التي تتجاوز الكلمات.. لتوصلت إلى فك رموز العالم."

ـ "كل الأشياء ليست سوى شيء واحد وحيد" هذا ما قاله الرجل العجوز سابقاً.

قرر التسكع بهدوء في شوارع "طنجة" الصغيرة: فبهذه الطريقة فقط يمكنه أن ينجح في تلقي الإشارات. وهذا دون شك يتطلب قدر كافي من الصبر والصبر أول فضيلة يكتسبها الراعي.

ومن جديد طبّق في هذه العالم الغريب، نفس الدروس التي كانت النعاج قد علّمته إياها.

ـ "كل الأشياء ليست سوى شيء واحد ووحيد" قال الرجل العجوز.

كان بائع الزجاجيات يراقب ولادة اليوم الجديد بنفس القلق الذي يراوده كل صباح.

منذ ثلاثين سنة وهو في نفس المكان، متجر في قمة شارع منحدر يندر مرور الزبائن فيه.. لكن الوقت أصبح متأخراً جداً الآن على تغيير مهنته: فكل ما تعلّمه خلال مسيرة حياته هو شراء وبيع الزجاجيات..

حين كان متجره معروفاً من قِبَل الكثير من ذوي الجيوب المليئة..: كالتجار العرب، والجيولوجيين الفرنسيين والإنكليز.. والجنود الألمان..، كان بيع الزجاجيات صفقة رابحة.. وكان في ذلك الوقت يتخيَّل كيف سيصبح رجلاً غنياً.. وكيف سيجد حوله عندما يصبح عجوزاً الكثير من النساء الجميلات..

ومرَّ الزمان.. ومضت السنين وبقيت المدينة على حالها دون أي تقدّم..

بينما أخذت "سبتة" تزدهر أكثر فأكثر.. فأخذت التجارة منحاً آخر، وبدأ جيرانه يختارون أماكن أخرى لتجارتهم، ولم يمض وقت طويل حتى رحل الجميع تقريباً ولم يبقَ في تلك الطلعة سوى بعض المتاجر النادرة.. ولم يعد أحد يكلّف نفسه عناء تسلّق شارع الطلعة من أجل هذه المتاجر التعيسة.

لكن بائع الزجاجيات لم يعد يملك الخيار فثلاثون عاماً من عمره مضت في شراء وبيع الزجاجيات.. ولا يستطيع الآن، بعد هذه السنوات، الالتزام باتجاه آخر.

وهكذا صار يشغل أيامه بمراقبة الناس القلائل الذين يذهبون ويأتون في ذلك الشارع الصغير.. لدرجة أنه اعتاد على ذلك وأصبح يعرف عن ظهر قلب عادات كل واحد من أولئك المارة.. وفي أحد الأيام وقف أمام الواجهة شاب غريب، قبل موعد الغداء ببضع دقائق.. كان لباس ذلك الشاب لا يميزه عن غيره من المارة.. ولكن عين تاجر الزجاجيات المتفحصة.. جعلته يُدرك أن هذا الشاب لا يملك قرشاً في جيبه.. وبالرغم من ذلك قرر التاجر أن يدخل إلى دكانه وينتظر قليلاً حتى ينصرف الشاب.

كـان علـى البـاب لافتـة تقـول أن بإمكـان صـاحب هـذا الـدكان أن يـتكلّم عـدّة لغـات. ووراء مبـسط البـضائع رأى الشاب شخصاً ما قد دخل وقال:

ـ "إذا أردت أنظـف لـك هـذه المزهريـات، فعلـى حالتهـا هذه لن يرغب أحد بشرائها."

نظر إليه التاجر دون أن يقول شيئاً.

ـ "وستدفع لي كأجر شيئاً ما لآكله، اتفقنا؟"

لكن التاجر بقـي صـامتاً.. فـأدرك الـشاب أن عليـه أخـذ القـرار. كـان المعطـف لا يـزال في جعبتـه وهـو الآن لـن يحتـاج إليه في هذه الصحراء. فأخرجه وبدأ ينظف به المزهريات ولم يمضي أكثر من نـصف سـاعة حتـى نظـف كـل الزجاجيـات الموجـودة في الواجهـة.. وخـلال هـذا الوقـت دخـل إلى الـدكان زبونان واشتريا عدّة قطع.. وعندما فرغ مـن عملـه طلـب الأجـر الذي اتفقا عليه، فقال له التاجر:

ـ "لنذهب للغداء". ثم علّق علـى البـاب لافتـة وسـارا حتـى وصـلا إلى أصغر حانـة في أعلـى الطلعـة لـيس فيهـا إلا طاولـة واحدة. وبعد أن جلسا قال بائع الزجاجيات مبتسماً:

ـ "لـيس تعبـك ـ في التنظيـف مـا أدفعـه لـك، لأن قـانون القرآن يرغمني على إعطاء الطعام لأي شخص جائع."

ـ "لماذا إذاً تركتني أقوم بهذا العمل؟" قال الشاب.

ـ "لأن الزجاجيات كانت وسخة، وأنت مثلي، كلانا بحاجة لأن ننظف رؤوسنا من الأفكار السيئة"

وبعد أن أنهيا طعامهما، التفت البائع نحو الشاب وقال:

ـ "أريدك أن تعمل في متجري، فاليوم دخل زبونان بينما كنت تنظف الزجاجيات وهذا مؤشر خير."

ـ "يتكلم الناس كثيراً عن الإشارات، فكّر الراعي. لكـنهم لا يـدركون تمامـاً مـا هـي هـذه الإشـارات الـتي يتكلمون عنها. إنهم مثلي.. فأنا لم ألاحظ أنني ومنذ سنوات كثيرة أتحدث مع نعاجي لغة بلا كلمات."

ـ "وهل تقبل بالعمل لدي؟" أصرَّ بائع الزجاجيات.

ـ "يمكنني العمل فيما تبقى من اليوم.. سأنظف حتى الفجر كل الزجاجيات في المتجر مقابل مالٍ أحتاجه لأكون غداً في مصر"

فجأة أخذ العجوز يضحك وقال:

ـ "حتى لو نظفت الزجاج لمدّة سنة كاملة.. وكسبت خلالها عمولة جيدة عن كل قطعة تُباع.. فإنك ستحتاج لاقتراض المال كي تذهب إلى مصر. هناك آلاف الكيلو مترات من الصحراء بين "طنجة" و"الأهرامات".

أطبق صمت طويل، بدا التاجر خلاله وكأنه نائم. لم يعد هناك سوق عام، ولا محادثات ومنازعات بين التجار.. وتوقف الرجال الذين كانوا يصعدون إلى المآذن ويغنون.. واختفت السيوف الجميلة ذات المقابض المرصعة بكاملها.. إنها نهاية الأمل والمغامرة.. نهاية الملوك العجائز والأساطير الذاتية.. لا مزيد من الكنوز.. ولا مزيد من الأهرامات.. وكأن العالم برمّته قد خرس لأن روح الشاب قد خمدت.. لم يكن هناك ألم ولا معاناة ولا خيبة.

بل مجرّد نظرة فارغة اجتازت باب الحانة الصغيرة، ورغبة كبيرة في الموت.. فكل شيء قد انتهى وإلى الأبد في اللحظة ذاتها.

نظر إليه البائع مندهشاً.. لقد اختفى فجأة كل الحبور الذي قد رآه فيه صباحاً.

ـ "يمكنني أن أعطيك المال لتعود إلى بلدك يا بني." قال بائع الزجاجيات.

بقي الشاب صامتاً، ثم وقف وأصلح ثيابه وحمل جعبته وقال: ـ "سأعمل عندك."

وبعد صمت طويل آخر أضاف كنهاية للحديث: ـ "أحتاج إلى المال كي أشتري بعض الخراف."

الجزء الثاني

ها قد مضى شهر على عمل الشاب عند بائع الزجاجيات.. لم يكن راضياً في عمله كثيراً.. فالبائع العجوز لا يتوقف عن التذمّر طول النهار من وراء طاولته، وهو يوصيه بأن ينتبه للأدوات كي لا يكسر شيئاً منها.

ومع ذلك لم يترك هذا العمل.. فهذا البائع بالرغم من كونه متأففاً إلا أنه ليس ظالماً، فقط كان يعطيه عمولة محترمة جداً عن كل قطعة تُباع، وهكذا تمكن الشاب من تجميع بعض المال. وفي صبيحة أحد الأيام حسب ما ادخره فوجد أنه.. إذا استمرَّ بنفس هذه الشروط.. سيحتاج إلى سنة كاملة ليتمكن من شراء بعض الخراف.

ـ "ما رأيك أن نعرض بعض الزجاجيات، قال الشاب لرب عمله. يمكننا أن نضع رف في الخارج ليلفت نظر المارة عند أقدام الطلعة، هناك في الأسفل."

ـ "لم أعمل شيئاً كهذا من قبل، أجاب البائع. رف!!؟.. سيصطدم به المارة ويتكسر الزجاج.."

ـ "عندما كنت أجوب البراري مع نعاجي.. كانت عُرضة دائماً لأن تكون ضحية للسعة أفعى.. لكن هذا الخطر جزء من حياة الخراف والرعاة."

ذهب التاجر ليخدم زبوناً أراد شراء ثلاث مزهريات من الكريستال. الآن، أصبح البيع أفضل من أي وقت مضى.. وكأن العالم قد رجع إلى الوراء.. إلى الزمن الذي كان فيه هذا الشارع واحداً من أهم الأشياء الرئيسة في "طنجة".

قال البائع لعامله عندما انصرف الزبون: ـ "إن الحركة في هذا الشارع تزداد أكثر فأكثر.. وما نكسبه يوفر لي حياة أفضل من ذي قبل.. ويسمح لك باسترجاع خرافك خلال وقت قصير، .. أي خير نرجوه من الحياة أكثر من هذا؟"

ـ "لكـن علينـا أن نتبـع الإشـارات" أجـاب الـشاب دون تفكـير.. وفي الحـال نـدم علـى مـا قالـه فلـيس لـدى البـائع أيـة فرصة ليلتقي بملك.

ـ "هـذا مـا نـدعوه بالمبـدأ المناسـب أو حـظ المبتـدئ.. لأن الحياة تريدك أن تعيش أسطورتك الذاتيـة.." كـانت كلمـات الملك العجوز هذه تتردد في رأس الشاب..

لقد فهم البائع جيداً كلام عامله.. فمجـرد حـضور هـذا الأخـير إلى المتجـر كـان مؤشـر خـير.. وبمـرور الأيـام ازداد الـربح.. ومـع هـذه الأمـوال الكـثيرة لم ينـدم البـائع أبـداً علـى تـشغيل الإسـباني. حتـى إن الـشاب نفسـه كـان يـربح أكثـر بكـثير مـن الطبيعـي.. فعنـدما حـضر إلى المتجـر كـان لـدى البائع اعتقاد منذ زمن طويل أن المبيعات لن تزداد أبداً.. لذلك كان يعطيه عمولة مرتفعـة جـداً.. وكـان حدسـه يقـول لـه إن هذا الشاب سيعود عمّا قريب لنعاجه.

ـ "لمـاذا تريـد الـذهاب إلى الأهرامـات؟" سـأل كـي يُبعـد الحديث عن موضوع عرض البضائع.

ـ "لأنـني سمعـت عنهـا الكـثير" أجـاب الـشاب مُتجنبـاً الحديث عن حلمه..

فقد أصبح الكنز بالنسبة له الآن ذكرى مزعجة يحاول الابتعاد عن التفكير بها.

ـ "لا أحد يقطع الصحراء، فقط ليذهب ويرى الأهرامات، فهي ليست سوى كومة حجارة.. بإمكانك بناء واحدة منها في حديقة منزلك"

ـ "ألم تحلم بالسفر أبداً؟" قال الشاب وهو ذاهب ليخدم زبوناً آخر دخل للتو إلى المتجر.

بعد يومين تحدّث الرجل الطيب ثانية عن عرض البضائع مع موظفه الشاب:

ـ "لا أحب التغيير كثيراً.. فلا أنا ولا أنت مثل حسن.. ذلك التاجر الغني الذي إذا ما أخطأ يوماً في إحدى تجاراته لا يكلّفه ذلك كثيراً، بينما سنعاني نحن مما تجرّه علينا أخطاؤنا.."

ـ "هذا هو الكلام الصحيح" فكّر الشاب.

ـ "لماذا تريد هذا العرض؟" سأل التاجر.

ـ "أريد العودة بأسرع وقت ممكن إلى نعاجي. عندما يكون الحظ إلى جانبنا علينا أن نستفيد منه، وأن نقوم بكل ما من شأنه أن يقوّيه أكثر وأكثر.. مثلما سنستفيد

منه.. هذا ما ندعوه "بالمبدأ المناسب" أو "حظ المبتدئ" لم يقل العجوز شيئاً ، بل ظلَّ يفكّر.. وبعد قليل قال:

"إن الرسول أعطانا القرآن، وفرض علينا خمس فروض نراعيها خلال حياتنا وهي: الصلاة خمس مرات في اليوم، وصوم رمضان، وواجب الزكاة نحو الفقراء."

ثم سكت وامتلأت عيناه بالدموع.. يا له من رجل ورع.. مع أنه في أغلب الأحيان يظهر قلّة صبر، لكنه يبذل كل ما بوسعه ليعيش في توافق مع قانون الشريعة الإسلامية.

- "وما هو الفرض الخامس؟" سأل الشاب

- "سألتني منذ يومين إن كنت أحلم بالسفر.. وأنا أقول لك اليوم أن الفرض الخامس على كل مسلم حقيقي هو السفر. السفر مرّة واحدة على الأقل في الحياة إلى "الكعبة في "مكة". و"مكة" أبعد من الأهرامات.

عندما كنت شاباً فضّلت توظيف جزء من المال الذي أملكه للبدء بهذه التجارة.. كنت آمل في وقتها أن أصبح غنياً بما يكفي للذهاب إلى "مكة".. ومع مرور الوقت بدأت أموالي تزداد لكنني لم أجد شخص يمكنني الاعتماد عليه في العناية بالزجاجيات . فالزجاج وكما تعلم هش..

ودائماً كنت ألتقي بأناس كانوا يمرون إلى متجري وهم في طريقهم إلى "مكة".. وكان منهم حجّاج أغنياء يصحبون معهم موكباً من الخدم والجمال، لكن أغلب هؤلاء الناس كانوا من الفقراء.. لا بل وأفقر مني بكثير.

كان الجميع يذهبون ويأتون والسعادة تغمرهم.. ويعلقون على أبواب بيوتهم رموز تدل على حجهم المبرور.

قال لي أحدهم وكان إسكافياً يكسب قوته من إصلاح أحذية هؤلاء وأولئك، إنه مشى ما يقارب السنة في الصحراء كي يصل إلى "مكة".. لكن تعبه في الانتقال بين كل البيوت في "طنجة" حين يذهب لشراء الجلد.. كان أكثر بكثير من تعبه في الصحراء"

- "ولماذا لا تذهب الآن إلى "مكة"؟ سأل الشاب.

- "لأن "مكة" تجعلني أتمسك بالحياة، إنها تعطيني القوة لأواجه كل هذه الأيام المتشابهة، وهذه المزهريات المزروعة هناك على الرفوف، لأواجه الغداء والعشاء في هذا المطعم البائس.. إني أخاف من تحقيق حلمي فلا يعود لدي بعدها أي سبب لأستمر في الحياة.

وأنت، أنت تحلم بالخراف والأهرامات.. أنت لا تُشبهني.. وبإمكانك أن تحقق أحلامك. أمّا أنا فكل ما أريده هو الحلم "بمكة".. لطالما حلمت باجتياز الصحراء.. وبالوصول إلى الساحة حيث الحجر المقدس.. ولطالما تخيّلت كيف ستكون الدورات السبع التي عليَّ إكمالها حول الحجر قبل أن أستطيع لمسه.. ومَن سيكون بجانبي ومن أمامي.. والنيات والصلوات التي سنتبادلها وسنقولها معاً... لكنني أخشى ألاّ يكون هذا سوى خيبة أمل كبيرة.. لذلك أفضل الاستمرار في الحلم؟"

في ذلك اليوم أعطى البائع للشاب الإذن بإقامة العرض.

لا يستطيع الناس جميعاً رؤية أحلامهم بنفس الطريقة.

مرَّ شهران آخران، اجتذب المعرض خلالها الكثير من الزبائن...

ورأى الشاب أنه إذا بقي العمل على هذا المنوال ذاته... فإنه سيتمكن خلال ستة أشهر من العودة إلى إسبانيا، ومن استعادة خرافه الستين لا بل ومن شراء ستين أخريات زيادة عليها.

إذاً بأقل من سنة، سيتمكن من مضاعفة قطيعه.. ومن التفاوض مع العرب فقد نجح في تعلّم هذه اللغة الصعبة.

لم يستخدم الأوريم والتوميم.. منذ ذلك الصباح الذي كان فيه في ساحة السوق فمصر بالنسبة له أصبحت حلم بعيد كما هي "مكة" بالنسبة لبائع الزجاجيات إضافة إلى أنه الآن راضٍ بعمله ولا يشغل باله سوى اليوم الذي سيعود فيه إلى "طريفة" منتصراً.

ـ "تذكّر أن تعرف دائماً ماذا تريد" قال له الملك العجوز.

كان الشاب يعرف ما يريد ويسعى لتحقيق هدفه. ربما كان الكنز هو مجيئه إلى هذه الأرض الغريبة، ولقائه بلص.. ثم وبناءً على هذين السببين، مضاعفة عدد خرافه دون أن يصرف قرشاً واحداً.

إنه فخور بنفسه.. فقد تعلّم أشياء مهمة، مثل تجارة الزجاجيات.. واللغة دون كلمات.. بالإضافة للإشارات. وفي عصر أحد الأيام رأى رجلاً يشتكي في أعلى المنحدر من عدم وجود مكان مناسب لشرب شيء ما بعد تسلّق هذه الطلعة.. وبما أنه الآن يعرف لغة الإشارات، ذهب إلى رب

عمله وقال له: ـ "ما رأيك أن نقدم الشاي للناس الذين يصعدون الطلعة."

ـ "هناك الكثير من المحلات التي تقدّم الشاي هنا.."

ـ "لكننا سنقدّمه بكؤوس من الكريستال. وهكذا سينظر الناس نظرة مختلفة لشاينا وسيرغبون في الوقت ذاته بشراء الكريستال. فالناس ينجذبون للجمال."

تأمّل البائع صانعه خلال بعض الوقت، دون أن يقول شيئاً.

لكن في المساء.. بعد أن أنهى صلاته وأغلق الدكان، جلس على الرصيف ودعاه ليدخن الأركيلة معه، ذلك الغليون الذي يدخنه العرب.

ـ "إلى ماذا تسعى؟" سأل بائع الزجاجيات العجوز.

ـ "لقد قلت لك، أريد استعادة نعاجي ولهذا أحتاج إلى المال."

وضع العجوز جمرات جديدة وسحب نفساً طويلاً، ثم قال:

ـ "ها قد مضى ثلاثون عاماً وأنا ملتزم بهذا الدكان. عرفت خلالها الزجاجيات في حالتها السيئة والجيدة.. وتعلّمت

هذه التجارة بكل تفاصيلها. لقد اعتدت على دكاني هذا بأهميته المتواضعة وزبائنه القلائل.. فإذا بدأت أنت تبيع الشاي بكؤوس كريستالية فإن عملنا سيزدهر.. وستوجّب عليَّ أن أغيّر نمط حياتي.

- "أليس هذا شيء جيد؟"

- "لقد اعتدت حياتي هذه. قبل أن ألتقي بك، كنت أفكّر بأنني أضعت كل هذا الوقت في نفس المكان، بينما غيّر أصدقائي حياتهم.. فاضمحلّت أعمال بعضهم وازدهرت أعمال الآخرين... لقد أغرقني هذا في حزن كبير جداً. أمّا الآن فأنا أعرف أن الأمر ليس هكذا بالضبط: فها هو المحل قد وصل إلى ما كنت أتمناه دائماً..

لا أريد أن أغيّر، لأنني لا أعرف كيف أغير. لقد اعتدت على نفسي تماماً."

لم يعرف الشاب ماذا يقول له.. فتابع العجوز:

- "أنت بالنسبة لي نعمة، وأنا أعرف أن النعم الكبيرة تتحول إلى نقم عندما لا تُقبل.. لم أعد أنتظر شيئاً من الحياة. وأنت تجبرني على استشفاف موارد وإمكانيات وأفق لم يكن لدي أي فكرة عنها. لذلك سأشعر الآن بتعاسة

أكثر بكثير من السابق – لأنني أعرف أن بإمكاني أن أملك كل شيء لكنني لا أريد."

ـ "الحمد لله أنني لم أقل شيئاً لبائع الفوشار." قال الشاب في نفسه.

كانت الشمس تغيب.. بينما كان البائع وصانعه يدخنان الأركيلة ويتحدثان بالعربية.. كان الشاب راضياً عن نفسه لأنه يتكلم هذه اللغة الصعبة. وفي وقت من الأوقات كان يعتقد أن بإمكان النعاج أن تعلّمه كل شيء عن العالم. لكن النعاج غير قادرة على تعليم العربية.

ـ "من المؤكد أن هناك أشياء أخرى في العالم، لا تعرف النعاج أن تعلّمها." فكّر. وهو ينظر للبائع دون أن ينبس بكلمة.

ـ "أعتقد أنه ليست هي من تعلّم، بل أنا من يتعلّم. فهي لا تريد سوى الكلأ والماء."

ـ "مكتوب" قال البائع أخيراً.

ـ "ما معنى هذا؟"

ـ "يجب أن تكون عربياً لتفهم هذا.. لكن الترجمة شيء مثل "إنه مكتوب"

بينما بدأت جمرات الأركيلة تخمد.. قال للشاب إن بإمكانه أن يبدأ بتوزيع الشاي للزبائن في كؤوس من الكريستال.

أحياناً يستحيل علينا كبح مجرى الحياة.

كان الناس يتعبون من تسلّق شارع الطلعة ذاك.. لكن محل الزجاجيات في الأعلى والشاي بالنعناع المنعش الذي كان يقدّمه.. كانا ينسونهم عناء التسلّق.

وقليلاً قليلاً أصبح الناس يستمتعون بتسلّق تلك الطلعة ليصلوا في النهاية إلى محل الزجاجيات فيدخلونه ليشربوا الشاي في كؤوس رائعة من الكريستال.. ويبدي كل منهم إعجابه بطريقته الخاصة.

ـ "لم تخطر هذه الفكرة في بال زوجتي أبداً" قال الرجل واشترى بعض الكؤوس الكريستالية فقد كان لديه مدعوين في المساء وأرادهم أن يتأثروا بقيمة ورفاهية هذه الكؤوس..

وأكد زبون آخر أن الشاي المقدّم بكؤوس كريستالية يحتفظ بنكهته بشكل أفضل..

وقال ثالث إن سكب الشاي في الكريستال عادة شرقية، وأن لذلك تأثير سحري.

لم يمض وقت طويل حتى ذاع صيت هذا الدكان الذي افتتح حداثة في تجارة قديمة جداً.. وأصبح الكثيرون يتسلقون الطلعة فقط ليصلوا إلى هذا الدكان..

وبالطبع حاول الآخرون أن يقلّدوا بائع الزجاجيات فأصبح هناك العديد من المحلات التي تقدّم الشاي في كؤوس من الكريستال. لكنهم لم يكونوا في أعلى شارع الطلعة.. وهذا ما جعل تجربتهم فاشلة.

وسرعان ما اضطر بائع الزجاجيات إلى تشغيل عاملين آخرين.. وإلى استيراد الزجاجيات وكميات هائلة من الشاي في آن واحد.

كي يواكب الاستهلاك المتزايد يوماً بعد يوم من قِبَل الرجال والنساء المتعطشين دائماً للأشياء الجديدة وعلى هذا الحال مرت ستة أشهر.

أحد عشر شهراً وتسعة أيام مرّت على المرّة الأولى التي خطا فيها الشاب أرض القارة الأفريقية.

ومع شروق الشمس استيقظ ليرتدي حلته العربية ذات الكتان الأبيض التي اشتراها خصيصاً من أجل هذا اليوم.. ووضع على رأسه العمامة وثبتها بعقال مصنوع من جلد الجمل، ثم انتعل صندله الجديد ونزل دون أن يثير ضجة.

كان العجوز لا يزال نائماً، فحضّر لنفسه شطيرة من السمسم وشرب الشاي الساخن بكأس من الكريستال. بعد ذلك جلس على عتبة الدكان وأخذ يدخن الأركيلة وحيداً.

دن بهدوء، دون أن يفكر بشيء.. لم يكن يسمع شيئاً سوى ضجة الريح المستمرة التي كانت تصفر حاملةً معها رائحة الصحراء.. وعندما انتهى وضع يده في أحد جيوبه وبقي لحظات يتأمل ما أخرج منها.

إنه ما ادخر من مال.. الآن أصبح بإمكانه أن يشتري مئة وعشرين خاروفاً.. وبطاقة للعودة.. وإذن استيراد وتصدير بين بلده والبلد الموجود به حالياً.

انتظر استيقاظ العجوز بفارغ الصبر.. ليشربا الشاي معاً.

- "سأغادر اليوم، قال الشاب. أصبح لدي ما يكفي من المال لشراء الخراف.. وأنت أيضاً لديك ما يكفي للذهاب إلى "مكة""

لم يقل العجوز شيئاً بل قام بتحضير الشاي.

- "أرجو أن تمنحني بركتك فهذا يساعدني."

لكن العجوز استمر في تحضير الشاي بهدوء. وأخيراً بعد بعض الوقت التفت نحو الشاب وقال: - "إني فخور بك.. لقد أعدت الحياة لدكاني ولكنني لن أذهب إلى "مكة" وأنت تعرف ذلك جيداً. مثلما تعرف أيضاً أنك لن تشتري الخراف"

- "مَن قال ذلك؟" سأل الشاب بعناد

- "مكتوب" قال بائع الزجاجيات العجوز ببساطة.

ثم باركه.

ذهب الشاب إلى غرفته ليلملم حاجياته. فملأت ثلاثة خروج وعندما همَّ بالمغادرة لاحظ جعبته القديمة في إحدى زوايا الغرفة.

كانت قديمة وبالية.. لقد نسي وجودها تماماً.. وما زال فيها كتابه الكبير ومعطفه.. حملها بين يديه وفكّر في أن

يهديها لأول صبي يصادفه في الشارع، فتدحرج الحجران منها.. أوريم وتوميم.

وفي تلك اللحظة لمعت ذكرى الملك العجوز في باله.. ولشد ما أدهشته نفسه عندما لاحظ أنه لم يعد يفكر بذلك اللقاء منذ وقت طويل..

لقد عمل سنة كاملة دون انقطاع.. لم يشغل فكره خلالها سوى كسب المال الكافي كي لا يضطر للعودة إلى إسبانيا مطأطئ الرأس.

- "لا تتخلّى عن أحلامك أبداً.. وانتبه للإشارات.." هذه كلمات الملك العجوز التي كانت ترن في باله..

التقط أوريم وتوميم عن الأرض.. ومن جديد انتابه الشعور الغريب بوجود الملك العجوز بالقرب منه.

ومع أنه قد عمل طوال السنة لهدف معين.. لكن الإشارات الآن تدل على أن لحظة الرحيل قد جاءت.

- "سأعود إلى خط سيري الأساسي، فكّر. فالنعاج لم تعلمني التكلم بالعربية."

لكن النعاج قد علّمته شيء آخر ذو أهمية وهو أن في العالم لغة تُفهم من الجميع.. وأنه قد عمل خلال كل هذا

الوقت كي يحسِّن الدكان. إنها لغة الحماسة، لغة الأشياء التي نفعلها بحب وشغف في سبيل النتيجة التي نتمنى الحصول عليها.. وسعياً وراء ما نؤمن به.

لم تعد "طنجة" بالنسبة له مدينة غريبة.. إنه يعرف الآن أنه مثلما دخل إلى هذا المكان، بإمكانه أن يجتاح العالم بأسره.

- "عندما تريد شيئاً من كل قلبك، فإن العالم بأسره يتعاضد كي يتيح لك تحقيق رغبتك" هذا ما قاله الملك العجوز.. لكنه لم يتحدث عن اللصوص.. ولا عن الصحراء الواسعة.. والناس الذين يعرفون أحلامهم ولا يريدون تحقيقها.. ولا عن كون الأهرامات مجرد كومة حجارة بإمكان أياً يكن أن يبنيها في حديقته.. لم يذكر الملك العجوز شيئاً عن أنه عندما يكون لدينا المال الكافي لشراء قطيع أكبر بكثير من الذي كنا نملكه.. علينا أن نشتري هذا القطيع..

حمل جعبته القديمة مع الأكياس الأخرى.. ونزل الدرج؛ كان العجوز الطيب مشغولاً بخدمة زوج من الغرباء.. بينما

كان الزبائن الآخرون يحتسون الشاي في كؤوس من الكريستال. إنها بداية يوم عمل جيدة.

من حيث يقف الشاب بدى شعر تاجر الزجاجيات كشعر الملك العجوز تماماً.. وفي تلك اللحظة تذكر ابتسامة بائع السكاكر الذي التقاه في اليوم الأول الذي استفاق فيه في "طنجة".. حيث لم يكن لديه سقف يتآوى تحته.. ولا يسد رمقه.. لقد أثارت تلك الابتسامة يومها ذكرى الملك العجوز أيضاً.

- "وكأنه قد مرَّ من هنا وترك أثراً له.." فكّر. ربما سنحت الفرصة لكل شخص من هؤلاء بالتعرف على الملك في لحظة أو أخرى من حياته.

فقد قال إنه يظهر دائماً لمن يعيش أسطورته الذاتية.

حمل أغراضه وغادر دون أن يودع تاجر الزجاجيات.. فلم يكن يريد أن يبكي. ومن الجائز جداً أن يلتقيه مجدداً.. لكنه سيتحسر على كل هذه الفترة.. وعلى كل الأشياء الجيدة التي تعلمها.. لقد ازدادت ثقته بنفسه جداً وأصبح لديه رغبة عارمة في اجتياح العالم.

ـ "لكني سأذهب إلى البراري التي عرفتها سابقاً ، وسأقود خرافي من جديد." كان هذا قراره.. لكنه الآن لم يعد راضياً عنه.. كان هذا حلمه الذي عمل لأجله سنة كاملة.. لكنه الآن يفقد أهميته شيئاً فشيئاً.. ربما لأنه لم يكن حلمه.

مَنْ يعرف.. ربما من الأفضل له أن يكون مثل تاجر الزجاجيات..

لا يذهب إلى "مكة" بل يعيش على أمل الذهاب إليها. لكن الأورميم والتوميم كانا بيده وهذا الحجران يوصلان إليه قوة وإدراك الملك العجوز..

ومن باب الصدفة.. أو ربما الإشارة.. وصل إلى المقهى الذي دخل إليه في يومه الأول. لم يكن اللص هناك.. وبعد قليل جاء صاحب المقهى ليقدّم له كأس من الشاي.

ـ "بإمكاني أن أعود راعياً متى أريد.. قال لنفسه. لقد ربيت الخراف ولن أنسى أبداً كيف أقوم بذلك.. لكن إن ذهبت فرصة الذهاب إلى أهرامات مصر.. ربما لا تعود أبداً.. إضافة إلى أن الرجل العجوز كان يملك قلادة ذهبية

مرصعة.. وهو يعرف قصتي.. إنه ملك حقاً.. ملك عالم حكيم.."

ثم إن السهول الأندلسية قريبة جداً لا يفصله عنها سوى ما يقارب الساعتين بالقارب.. أما الأهرامات فتفصله عنها صحراء شاسعة.. ويمكن أيضاً تصور الوضع على النحو التالي: إنه الآن على بعد كبير عن كنزه لكن المسافة التي لا تستغرق أكثر من ساعتي سفر كلفته تكريس سنة كاملة من العمل.

ـ "أنا أعرف لماذا أريد العودة إلى نعاجي. فأنا أعرفها مسبقاً وبناء على ذلك لن يتطلب الأمر مني جهداً كبيراً.. إضافة إلى أنني واثق من أني أحبهم. لكنني لا أعرف إن كان من الممكن أن نُحب الصحراء. لكنها تحوي كنزي وثم في أسوأ الأحوال إن لم أستطع التوصل إليه يمكنني أن أعود إلى دياري في أي وقت.. وها هي الحياة قد أعطتني مالاً وفيراً لم أكن أحسب له حساباً ولدي متسع من الوقت.. إذاً لما لا؟"

في هذه اللحظة أنارت قلبه غبطة كبيرة.. بإمكانه أن يعود راعياً متى يشاء. وفي أي وقت يستطيع أن يصبح تاجر

زجاجيات. تُرى هل يُخبئ العالم له المزيد من الكنوز الدفينة الأخرى..؟! لقد أعطاه حلماً متكرراً وجعله يلتقي بملك وهذا لا يحصل لكل الناس.

عندما خرج من المقهى.. كان السرور يملؤه فقد تذكر للتو أحد مموني بائع الزجاجيات.. وكان هذا الرجل يحمل البضاعة عن طريق الموكب الذي يجتاز الصحراء..

كان الأورميم والتوميم بين راحتيه.. بفضل هذين الحجرين.. سيعود أدراجه باتجاه كنزه.

- "إني دائماً بجانب أولئك الذين يعيشون أسطورتهم الذاتية." هذا ما كان الملك العجوز قد قاله.

وعلى كل الأحوال لن يخسر شيئاً بذهابه إلى المرفأ ليعرف إن كانت الأهرامات بعيدة جداً بالفعل.

كان الإنكليزي جالساً في ذلك البناء حيث تفوح رائحة الماشية والعرق والغبار.. لا يمكن دعوة ذلك بالمرفأ.. فهو ليس سوى سور يجمع الماشية..

- "كل حياتي تتوقف على مروري بمكان كهذا" قال لنفسه. وهو يتصفح بشرود مجلة عن الكيمياء..

ـ "عشر سنوات من الدراسة تقودني إلى مجمع ماشية!!.."

لقد توجب عليه أن يتبع الإشارات.. لا بل أن يؤمن بها.. فكل حياته وكل دراسته تمركزت حول البحث عن لغة وحيدة يتكلمها الكون بأسره.

في بادئ الأمر كان يهتم بالإسبرانتو[1].. ثم اتجه اهتمامه نحو الأديان.. وفي النهاية سيطرت الخيمياء[2] على تفكيره..

الآن.. يعرف التكلم بالإسبرانتو، ويفهم الديانات المختلفة بشكل عميق لكنه لمَّا يصبح خيميائياً بعد. فبالرغم من أنه قد نجح في تحليل أشياء مهمة، إلاّ أن أبحاثه توقفت عند حد لا يستطيع التعمق بعده أكثر..

فحاول عبثاً أن يكون له علاقة بخيميائي أيّاً يكن.. لأن شخصيات الخيميائيين غريبة حقاً. فهم لا يفكرون إلاّ بأنفسهم لذلك يرفضون مساعدة أحد.. ربما يكونون قد

١- لغة الاسبرانتو لغة عالمية

٢- الخيمياء: علم تحويل المعادن ـ كيمياء قديمة.

اكتـشفوا سـر الإنجـاز العظـيم ـ بعبـارة أخـرى حجـر الفلاسفة[1] ـ ولهذا هم منطوون على أنفسهم بصمت!؟

لطالما بحث عن حجر الفلاسفة هذا.. وقد صرف من أجله جزءاً كبيراً من الثروة التي أعطاه إياها والده.. فدخل إلى أفضل مكتبات العالم وأشهرها.. واشترى أهم الأعمال التي تتحدث عن الخيمياء وأكثرها ندرة وفي أحد تلك الأعمال قرأ عن خيميائي عربي مشهور زار أوربا منذ سنوات بعيدة.. كان هذا الخيميائي قد اكتشف حجر الفلاسفة وإكسير الحياة المديدة[2] وذلك منذ أكثر من مئتي عام..

لقد أثّرت هذه القصة بالإنكليزي كثيراً.. لكنها كانت ستبقى مجرّد أسطورة لو لم يحدّثه أحد الأصدقاء العائدين من بعثة أثرية في الصحراء عن عربي ذو قدرات نادرة..:

١- حجر الفلاسفة: حجر كيميائي خيالي، اعتقد أصحاب الكيمياء القديمة أنه قادر على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة.. وبإمكانه أيضاً إطالة العمر.

٢- إكسير الحياة: مادة قيل أنها تطيل الحياة إلى ما لا نهاية.. لها سائل محلّى يحتوي على مواد طبية.

ـ "يعيش في واحة الغيوم.. ويُقال أن عمره مئتي سنة، وأنه قادر على تحويل أي معدن بخس إلى ذهب.." كانت هذه كلمات الصديق التي أشعلت نار حماسة بلا حدود في صدر الإنكليزي. فقام بالحال وألغى كل التزاماته وجمع أهم كتبه وانطلق.. وها هو الآن هنا في هذا المرفأ الأشبه بزريبة.. وخارج هذا المكان كان موكب كبير يستعد للانطلاق في رحلة لاجتياز الصحراء. يمر خلالها "بالغيوم".

ـ "يجب أن ألتقي بهذا الخيميائي الملعون مهما كلفني الأمر." فكّر..

الآن أصبحت رائحة الماشية محمولة نوعاً ما

دخل شاب عربي مثقل بالأغراض مسلِّماً على الإنكليزي وسأله: ـ "إلى أين أنت ذاهب؟".

ـ "إلى الصحراء" أجاب وتابع قراءته.. لم يكن يرغب بالحديث.. فكل ما يحتاجه الآن هو استرجاع كل ما تعلّمه خلال العشر سنوات الماضية. لأن الخيميائي سيخضعه بالتأكيد لنوع من الامتحان.

أخرج العربي كتاباً وبدأ يقرأ بدوره. كان الكتاب مكتوباً بالإسبانية..

ـ "يا للحظ!" فكّر الإنكليزي فهو يتكلم الإسبانية بشكل أفضل من العربية. وها هو يلتقي بشاب ذاهب إلى "الغيوم" أيضاً يتكلّم الإسبانية سيكون شخصاً مسلياً.. يتحدث معه عندما لا تشغله أمور مهمة.

ـ "يا له من أمر مضحك!!" فكّر الشاب، بينما كان يحاول من جديد قراءة مشهد الدفن الذي بدأ به الكتاب.. "ها قد مضى ما يقارب السنتين على بداية قراءتي لهذا الكتاب، ومع ذلك لم أقطع فيه سوى بضع صفحات.."

حتى لو لم يقاطعه الملك العجوز في ذلك الحين... لما توصّل إلى التركيز.. ففي ذلك الوقت كان لا يزال متردداً في اتخاذ القرار.. أمّا الآن فقد أدرك شيئاً مهماً.. وهو أن القرارات تتمثّل فقط في البدء بالشيء. فعندما يأخذ المرء قراراً ما يغوص في تيار جارف يأخذه إلى مصير لم يكن يتوقع الوصول إليه، ولا حتى في حلمه.

ـ "عندما اخترت الانطلاق سعياً وراء كنزي، لم أتخيل أبداً أنني سأعمل في محل الزجاجيات، فكّر. وقياساً بهذا من الممكن أن يتوافق هذا الموكب مع قرار اتخذته بذاتي، لكن مسيره يبقى غامضاً."

في الجهة المقابلة له كان أوروبي سمج منهمكاً في قراءة كتاب أيضاً.. لقد رمقه هذا الانكليزي عندما دخل بطريقة تنم عن احتقار. كان من الممكن أن يصبحا صديقين جيدين، لكن الأوروبي بنظراته تلك وضع حداً في الحال.

أغلق الشاب كتابه فلم يكن يريد أن يقوم بشيء يخلق أي تشابه بينه وبين ذلك الأوروبي.. لكن الملل تسلل إليه فسحب من جيبه أورميم وتوميم وبدأ يلعب بهما.. وما إن وقع نظر الإنكليزي عليهما حتى صرخ:

ـ "أورميم وتوميم..!"

وبلمح البصر خبأ الشاب الحجران في جيبه ثم قال له:

ـ "ليسا للبيع.."

ـ "إنهما لا يساويا الكثير، قال الإنكليزي.. إنهما كريستال صخري ليس إلاّ. وهناك ملايين الكريستالات الصخرية على الأرض. لكن مَن يعرفها يعرف قيمتهما.. لم أكن أعرف أنه من الممكن إيجادهما في هذه البقعة من الأرض..!!"

ـ "إنهما هدية من ملك." قال الشاب.

انذهل الأجنبي.. ودس يده في جيبه ليخرج منها مرتجفاً حجران مثلهما تماماً.

ـ "لقد قلت ملك؟!.." قال الإنكليزي..

ـ "إنك لا تصدق ملكاً يتحدث مع راعٍ.." قال الشاب متأملاً أن يضع حداً لهذا الحديث..

ـ "بل على العكس تماماً.. فالرعاة هم أول من يحيَّون من الملوك في حين يرفضون مقابلة الباقين.. إضافة إلى كوني لا أرى شيئاً خارجاً عن المألوف في تحدث الملوك مع الرعاة.".. وبعد برهة أضاف خشية ألا يكون الشاب قد فهم جيداً: ـ "الكتاب المقدس هو مَن علمني كيف استخدم هذا الأورميم والتوميم.. إن هذان الحجران كانا وسيلة التنبؤ الوحيدة المسموح بها من اللّه.. لذلك كان الكهنة يحملونهما في قلادة من الذهب.."

حين سمع الشاب هذا الكلام شعر بسعادة غامرة لوجوده في هذا المكان.

قال الإنكليزي وكأنه يفكر بصوت عالٍ: ـ "ربما هذه إشارة."

ـ "ومَن حدثك عن الإشارات؟" سأل الشاب بفضول.

فأجابه الإنكليزي مغلقاً المجلة التي كان يقرؤها: ـ "كل شيء في هذا العالم إشارات ـ فالعالم مكوّن من لغة يمكن لكل الناس فهمها.. لكنهم ينسونها. وأنا الآن أبحث عن هذه اللغة العالمية.. في كل الأشياء ولهذا تجدني هنا. فعلي أن ألتقي برجل يعرف هذه اللغة العالمية، إنه خيميائي."

دخل مسؤول مخزن المرفأ وقطع حديثهما قائلاً:

ـ "إنكما محظوظان.. فهناك موكب سيبدأ المسير إلى "الفيوم" في عصر هذا اليوم.

ـ "لكنني أريد الذهاب إلى مصر" قال الصبي.

ـ " "الفيوم" في "مصر"، قال الرجل السمين. تبدو لي كأنك عربي غريب"

فقال له الصبي إنه إسباني. وانسرَّ الإنكليزي لسماع ذلك ـ فهو أوروبي بالرغم من ارتدائه الزي العربي.

ـ "لقد أطلق هذا الرجل على "الإشارات" اسم "الحظ"، قال الإنكليزي بمجرد أن خرج الآخر. لو كان بإمكاني لكتبت موسوعة ضخمة حول كلمتي "الحظ" و"المصادفة" فمع هاتان الكلمتان كُتبت لغة العالم."

ثم استمر في المحادثة.. وقال للشاب إن المصادفة ليست هي سبب وقوع الأورميم والتوميم بين يديه... وسأله إن كان هو أيضاً يبحث عن الخيميائي.

ـ "أنا أسعى وراء كنز." قال الصبي وندم على ذلك في الحال.

لكن الإنكليزي لم يبدي أي اهتمام لما قاله الصبي للتو. بل قال له:

ـ "إنني نوعاً ما خيميائي."

ـ "لا أعرف ما هو هذا الذي تبحث عنه.." أضاف الشاب، في اللحظة التي دخل فيها رئيس المرفأ ليدعوهما للخروج.

ـ "أنا قائد هذا الموكب، قال رجل ذو لحية طويلة وعينان سوداوان وبناءً عليه لي سلطان على حياة وموت مَن هم في موكبي.. فالصحراء امرأة متقلبة تُذهب عقول الرجال في بعض الأحيان."

كان هناك ما يقارب المئتي شخص وضعفيهم من الحيوانات والجمال العربية (وحيدة السنم).. وخيول وبغال.. وطيور.. إضافة إلى النساء والأطفال والكثير من الرجال

الـذين يحملـون سـيوفاً علـى أحـزمتهم.. أو بنـادق طويلـة علـى أكتافهم.

كان لدى الإنكليزي العديد من صناديق الثياب المليئة بالكتب.

وكانـت الـضوضاء تمـلأ المكـان بينمـا كـان القائـد مـستمر في تكـرار خطابـه علـى بعـض الواصـلين الجـدد ليكون مفهوماً من الجميع:

- "أجناس الناس جميعها تقريباً موجودة هنا وفي قلوبهم آلهة مختلفة.

لكن إلهي الواحد هـو "الله".. وأحلف بـالله العظيم إنـني سأقوم بكل ما أستطيع.. وسأبذل قصارى جهدي كي أهزم هـذه الـصحراء مـن جديد مـا أريـده فقـط هـو أن يحلـف كـل واحد منكم أيضاً ومـن أعمـاق قلبـه.. بإلهـه الـذي يعبـده بأنـه سيطيعني في كل الظروف..

أيها الناس.. إن عدم الطاعة في الصحراء تعني الموت."

جـاب الجميـع وشوشـة خافتـة.. كـان كـل واحـد يحلـف بصوت خافت جاعلاً من ربه شاهده..

حلف الشاب بالمسيح.. أمّا الإنكليزي فبقي صامتاً.

استمرت التمتمة لوقت أطول بقليل مما يلزم لقسم بسيط.. فقد كان الناس يطلبون حماية السماء أيضاً.

وبعد قليل سُمع صوت بوق طويل فامتطى الجميع أحصنتهم..

وكان الشاب والإنكليزي قد اشتريا جملين.. وكان الاهتزاز على متنهما يسبب بعض الألم لهما. أحسن الشاب بنوع من الشفقة على جمل الإنكليزي فالكتب ثقيلة جداً.

قال الإنكليزي متابعاً الحديث الذي كان قد بدأه في المرفأ:

ـــ "لا وجود للمصادفات في هذا العالم... إن أحد الأصدقاء هو من دفعني إلى المجيء إلى هنا.. فقد أخبرني أن عربياً.."

لكن الموكب بدأ المسير وأصبح من المستحيل سماع ما يقوله..

كان الشاب مدركاً تماماً لما يجري..: هناك رابطة غريبة تجمع شيئاً بآخر.. فهي من قادته ليصبح راعياً... ثم الحلم المتكرر.. ووجوده في مدينة قريبة من "إفريقيا" ولقاؤه

بملك في الساحة.. والسرقة التي تعرض لها ليصل إلى التعرف على تاجر الزجاجيات.. و...

ـ "كلما اقترب المرء من حلمه.. كلما أصبحت أسطورته الذاتية السبب الحقيقي لحياته.." فكّر.

أخذ الموكب يمشي باتجاه الشرق.. كان يسير طوال فترة الصباح ليتوقف عندما يشتد القيظ.. ثم يتابع المسير عندما تبدأ الشمس بالمغيب. ثم لم يكن هناك أحاديث كثيرة بين الشاب والإنكليزي، فقد كان هذا الأخير غارقاً معظم الوقت في كتبه.. لذلك كان الشاب يمضي وقته في مراقبة مسير الحيوانات والرجال وسط الصحراء..

لقد أصبح كل شيء مختلف عن يوم الانطلاق.. ففي ذلك اليوم كان هناك ازدحام شديد.. وصُراخ وبكاء أطفال.. وأصوات دواب.. إضافة إلى روائح التجار الأدلاء التي لا تُطاق.. أمَّا الآن في هذه الصحراء الواسعة.. فلا شيء من كل هذا.. ليس هناك سوى الريح الأبدية والشمس وحوافر الحيوانات حتى الأدلاء لم يعودوا يتحدثون مع بعضهم البعض..

وفي إحـــدى الأمـــسيات قـــال راعـــي إبـــل للـــشاب والإنكليـزي..: "لطالما اجتـزت هـذه الرمـال الممتـدة ـ لكـن الصحراء شاسعة.. والأفق بعيـدة وهـذا يُشعرنا أن كل شـيء صغير.. ولذلك نلوذ بالصمت.."

فهـم الـشاب مـا أراد الجمّال قولـه.. فبـالرغم مـن أنـه لم يمشي من قبل في الصحراء.. إلاّ أنه في كل مـرّة كـان ينظـر فيها إلى البحر أو النـار ـ كـان بإمكانـه أن يُمضي سـاعات دون أن ينـبس بحـرف.. وهـو غـارق في أعمـاق عظمـة قـدرة عناصر الطبيعة اللامتناهية..

ـ "لقـد تعلّمـت مـن النعـاج... وتعلّمـت مـن الزجاجيـات.. وبإمكاني الآن بلا شك أن أتعلّم مـن الصحراء ـ إنهـا أكثـر سهولة وحكمة ـ " فكّر.

لم تكـن الـريح تتوقـف لحظـة عـن الهبـوب.. وقـد ذكـره هذا باليوم الذي شعر فيه بنفس هـذه الـريح في "طريفـة" حـين كان جالساً على سور الحصن..

ربما الآن تداعب تلك الرياح صوف خرافه ـ الـتي تجتـاز البراري الأندلسية سعياً وراء الغذاء والماء..

ـ "لم تعد نعاجي..، قال لنفسه دون أن يحس بحنين حقيقي. لقد اعتادت الآن بالتأكيد على راعٍ جديد ونسيتني تماماً.. ربما هذا أفضل.

إن من اعتاد السفر مثلما هي حال النعاج يعرف أن هناك دائماً لحظة يتوجب عليه الرحيل."

ثم تذكر ابنة التاجر ـ وكان متأكداً من أنها قد تزوجت.. ومن المحتمل جداً أن يكون زوجها بائع فوشار.. أو ربما راعٍ يعرف القراءة مثله ـ وبإمكانه أن يروي لها قصص غريبة. على كل حال ـ ليس الوحيد الذي يمكنه القيام بذلك ـ لكن هذا الهاجس الذي شعر به ولّد فيه نوع من القلق إنه يسعى إلى تعلم اللغة العالمية التي تعرف ماضي كل شخص وحاضره.. كانت أمه تقول دائماً : "هواجس".. والآن بدأ يفهم أن الهواجس هي غطسات سريعة للروح في هذا المجرى الكوني للحياة.. وفيه يكون تاريخ الرجال جميعاً مرتبطاً ببعضه البعض بطريقة يبدو معها كلاًّ متكاملاً، بحيث يمكن معرفة كل شيء، لأن كل شيء مكتوب — "مكتوب" قال وهو يفكر ببائع الزجاجيات.

كانت الصحراء امتداداً من الرمال تارةً ومن الحجارة تارةً أخرى.. وحين كان يعترض الموكب كومة من الحجارة.. كان يُبعد المسير عنها.. وإذا ما ظهرت أمامه كومة من الصخور.. كان يرسم بخطاه دورة واسعة.. وعندما يُصبح الرمل ناعماً جداً بالنسبة لخف الجمال.. كان يُبحَث عن مسلك تكون الرمال فيه أكثر ثباتاً. وفي بعض الأحيان كانت الأرض تُغطى بالملح في موضع بحيرة قديمة فتئنُّ الحيوانات ويضطر الجمّالون إلى الترجُّل ونقل الحمولة بأنفسهم على ظهورهم.. ليساعدوا تلك الحيوانات على اجتياز الممر الصعب.. ثم يعيدون تحميلها من جديد..

وحين كان يُعيي المرض أحد الأدلاء أو يرديه قتيلاً.. كان الجمالون يقترعون ليختاروا بديلاً عنه.. وكل هذا لم يكن له إلاّ هدف واحد.. فالموكب كان دائماً يسير نحو نفس الهدف مهما تعددت اللغات ومهما واجه من عراقيل... إنها الواحة التي يدل النجم باستمرار على الطريق إليها.

الواحة، مكان النساء والماء والنخيل والبلح.. كان الناس جميعاً يرقبون ظهور ذلك النجم عند الفجر ليتأكدوا من أنهم على الطريق الصحيح.

وحده الإنكليزي لم يكن يلحظ شيئاً من كل هذا.. فهو غارق معظم الأوقات في قراءة كتبه.

لدى الشاب كتاب أيضاً وكان في الأيام الأولى للسفر يحاول قراءته..

لكن اهتمامه بمراقبة الموكب وسماع صفير الريح كان أكبر.. ويوماً بعد يوم ازداد تآلفاً مع حمله وبدأ يتعلّق به فرمى الكتاب الذي أصبح بالنسبة له حمولة زائدة. بالرغم من تخيّله، من باب التفاؤل، أنه في كل مرّة يفتح فيها هذا الكتاب يلتقي بشخص ذو أهمية.

وبعد فترة وجيزة أصبح هناك صداقة تجمعه بالجمّال الذي كان يسير باستمرار بمحاذاته.. وكان الشاب يروي لصديقه الجديد في فترة المساء خلال السهرة حول النار مغامراته عندما كان راعياً.

وفي إحدى السهرات أخذ الجمّال يحدثه عن حياته فقال:

ـ "كنت أسكن في بلدة قريبة من القاهرة"، وكان لدي بُستان خضراوات وأطفال وحياة مستقرَّة. وفي إحدى السنوات ذات الغلال الوفيرة بل إنها أفضل سنة على الإطلاق

من ناحية المحصول. انطلقنا جميعاً إلى "مكة" وأتممت بذلك الفريضة الوحيدة الباقية عليَّ. وأصبح بإمكاني، منذ ذلك الحين، أن أموت بسلام.. وهذا الأمر أسعدني جداً.

وذات يوم اهتزت الأرض وفاض "النيل" وخرج عن مجراه.. ولم أكن أعتقد أنَّ ما يحصل للآخرين يمكن أن يحصل لي أيضاً.

كان جيراني خائفين على أشجار زيتونهم من الفيضان.. وكانت زوجتي فزعة من رؤية أطفالنا يُحملون بعيداً بفعل الماء.. أمّا أنا فقد كنت مرتاعاً من فكرة أن أخسر كل ما نجحت في الحصول عليه.. لكن لم يكن هناك مفرٌّ... ولم تعد فائدة تُرجى من الأرض.. وهكذا أصبحت مجبراً على إيجاد وسيلة عيش أخرى. وها أنا ذا اليوم جمّال.

لقد سمعت كلام الله بأن لا يخشى المرء من المجهول فبإمكان كل إنسان أن يكسب ما يريد وما هو ضروري له.

إنَّ ما نخشاه هو أن نفقد ما نملك وما يتعلّق بحياتنا وزراعتنا.. لكن هذا الخوف يتلاشى عندما نُدرك أن قدرنا وقدر العالم بأسره قد خُطَّ بيد واحدة.."

كانت المواكب تلتقي أحياناً في فترة المساء.. ودائماً كان هناك موكب يحتاج ما يملكه موكب آخر.. وكأن كل شيء فعلاً مكتوب بيد واحدة وكانت الأحاديث تدور بين الجمالين عن العواصف الرملية وحكايا الصحراء.. وهم مجتمعون حول النار..

وفي أوقات أخرى كان يأتي إلى الموكب رجال سريون بوجود ملثمة: إنهم البدو الذين يحرسون طريق المواكب. وكان هؤلاء الرجال يعطون معلومات عن اللصوص والقبائل المتمردة، ثم يرحلون بهدوء وصمت مثلما جاؤوا.. ملتفين بجلابياتهم ذات الألوان الغامقة وألثمتهم التي لا تنفرج سوى عن عيونهم.

وفي إحدى السهرات انضمَّ الجمَّال إلى الشاب والإنكليزي اللذان كانا يجلسان بجانب النار وقال: ـ "هناك شائعات عن حرب بين القبائل." لم ينبس أحد منهم بكلمة ـ فلاحظ الشاب الإسباني أن نوع من الرعب قد عمَّ لدرجة أنه أخرسهم ـ إنها اللغة العالمية من جديد ـ بلا كلمات.

وبعد قليل تراجعت غمامة الصمت ليسأل الإنكليزي إن كـان هنـاك خطـر ـ فأجابـه الجمَّـال: ـ "مَـن يتوغَّـل في الـصحراء لا يمكنـه أن يعـود أدراجـه. وعنـدما لا نـستطيع التراجـع علينـا إلاّ نـشغل بالنـا إلاّ بأفـضل طريقـة للتقـدم.. والباقي على الله.. فهو يعرف الخطر فيه." ثم ختم كلامه بالكلمة السرية ـ "مكتوب"

ـ "عليك أن تنتبه أكثر لحركة المواكب، قال الشاب للإنكليزي. بعد أن غادر الجمَّال. إنها تقوم بدورات كبيرة لكن ذلك لا يقودها إلاّ إلى نفس النقطة."

ـ "وأنتَ، أنت عليك أن تقرأ أكثر عن العالم، أجابه الإنكليزي. الكتب تماماً مثل المواكب."

منـذ ذلـك الوقـت بـدأت صـفوف الرجـال والحيوانـات الطويلة بالتقدّم بسرعة أكبر. ولم يعد الصمت يعمُّ في النهار فقط بل زحف ليشمل ساعات المساء التي اعتاد الناس فيها على التجمع حول النار والثرثرة.

وبعد عدَّة أيام أصدر قائد الموكب أمراً بعدم إشعال النار ليلاً كي لا تجذب الانتباه. فبدأ المسافرون منذ ذلك الحـين ينـامون مـع بعـضهم الـبعض ضـمن إطـار مغلـق مـن

الحيوانات كي يتقوا صقيع الليل. ومن حول المخيم توزّع خفر مسلَّح.

وفي إحدى تلك الليالي، لم يستطع الإنكليزي النوم. فذهب إلى الشاب الإسباني، وأخذا يتنزهان على الكثبان القريبة..

في تلك الليلة كان القمر بدراً.. وتحت ضيائه الأخَّاذ روى الشاب للإنكليزي قصته.. وكيف وصل إلى هنا.. فأبدى الإنكليزي اهتماماً خاص بالجزء المتعلق بالمتجر الذي أخذ يزدهر يوماً بعد يوم منذ أن بدأ الشاب يعمل فيه.

ـ "هذا هو المبدأ الذي يحكم كل الأشياء، قال. إنه ما يُدعى في الخيمياء بالنفس الكلية.. فعندما نرغب بشيء ما من قلبنا نكون قريبين من النفس الكلية.. إنها قوة مساعدة دائماً.."

وأضاف إن هذا ليس أمراً خاصاً بالإنسان.. فكل ما هو على سطح البسيطة له روح أيضاً. سواءً أكان معدناً.. أم نباتاً.. أم حيواناً.. أو حتى مجرد فكرة.

ـ "كل ما فوق الأرض أو تحتها لا يتوقف عن التحول، لأن الأرض بحد ذاتها كائن حي ولها روح. وتحت جزء من

هذه الروح.. لكن من النادر أن نعرف بأنها تعمل لصالحنا. يجب أن تعلم أن المزهريات ذاتها قد تضافرت في متجر الزجاجيات لإنجاحك."

بقي الشاب صامتاً لبعض الوقت متأملاً القمر والرمل الأبيض.

ثم قال: ـ "إني أراقب الموكب المتقدم عبر الصحراء.. وأرى أنهما يتكلمان بنفس اللغة ولهذا تسمح له باجتيازها.. إنه لا يتوقف عن اختبار كل خطوة من خطواته ليتأكد من التناغم التام بينهما.. ومن كون هذه الحالة ستوصله بالفعل إلى الواحة.. لكن إن كان أحدنا بالرغم من كل الشجاعة لا يمكنه امتلاكها لا يفهم هذه اللغة.. فإنه سيموت منذ المرَّة الأولى.."

نظرا إلى القمر لبعض الوقت.. ثم تابع الشاب: ـ "إنه سحر الإشارات. أرأيت كيف يقرأ أدلاؤنا إشارات الصحراء.. وكيف تتحاور روح الموكب مع روح الصحراء..؟"

وبعد لحظات كان دور الإنكليزي في الكلام: ـ "يجب عليَّ حقاً أن أنتبه أكثر قليلاً للمواكب.."

ـ "وأنا عليَّ أن أقرأ كتبك" أجاب الشاب.

يا لها من كتب غريبة تتحدث كلها عن الزئبق.. والملح والتنانين والملوك، لم يفهم الراعي شيئاً منها. ولكن هناك فكرة بدت وكأنها متكررة في كل الكتب تقريباً وهي: أن كل الأشياء ليست سوى مظاهر لشيء واحد ووحيد.

وفي أحد هذه الكتب اكتشف أن أهم نص في الخيمياء مؤلف من بعض السطور فقط ومكتوب على زمردة بسيطة.

ـ "هذا هو لوح الزمرّد" قال الإنكليزي بفخر فقد استطاع تعليم رفيقه شيئاً ما.

ـ "لكن لماذا كل هذه الكتب؟"

ـ "لكي تساعدنا على فهم هذه الأسطر القليلة" أجاب الإنكليزي دون أن يكون هو ذاته مقتنعاُ بهذا الجواب.

من بين كل هذه الكتب كان كتاب قد شد اهتمام الشاب أكثر من غيره يتحدث عن خيميائين مشهورين.. وهم مجموعة من الرجال كرسوا حياتهم من أجل تنقية المعادن في المختبرات. فقد كانوا يعتقدون أنه إذا ما طُبخ المعدن لسنوات وسنوات فإنه سيتحرر في نهاية الأمر من كل الشوائب.. ولن يبقى حينها في مكانه إلاّ "النفس الكلية".

وهذا هو الشيء الذي يسمح للخيميائين أن يفهموا كل ما يوجد على سطح الأرض.. فهي اللغة التي تتواصل بفضلها كل الأشياء.. هذا هو الاكتشاف الذي يُدعى "الإنجاز العظيم" والمكوّن من جزء سائل وجزء صلب...

سأل الشاب: ـ "ألا تكفي مراقبة الناس والإشارات لاكتشاف هذه اللغة؟"

ـ "لديك هوس مفرط في تبسيط الأشياء أجابه الإنكليزي بانزعاج. إن الخيمياء عمل جاد إنها مسؤولية ويجب تتبع كل مرحلة من العملية، حسب تعليمات المعلمين."

ومن خلال قراءة ذلك الكتاب، اكتشف الشاب أن الجزء السائل من "الإنجاز العظيم" يُدعى "إكسير الحياة المديدة" وهذا الإكسير لا يُشفي فقط كل المرضى... بل يمنع الخيميائي أيضاً من الهرم.

أما الجزء الصلب ـ فهو ما يُدعى "بحجر الفلاسفة" الذي قال عنه الإنكليزي"

ـ "إن اكتشاف حجر الفلاسفة ليس أمراً هيناً.. فقد بقي الخيميائيون عدّة سنوات في مختبراتهم وهم يراقبون هذه النار التي تُنقي المعادن. وكلما كانت تزداد مراقبتهم

لهذه النار ـ كانت عزلتهم وابتعادهم عن كل أباطيل العالم تـزداد رويـداً رويـداً.. وهكـذا إلى أن اكتـشفوا أن تنقيـة المعادن التي يقومون بها.. قد طهرت نفوسهم.."

أوقدت هذه الكلمات في ذاكرة الشاب ذكرى تاجر الزجاجيات الـذي كـان قـد قـال لـه عنـد لقـائهم الأول إن تنظيف هذه المزهريات عمل جيد لأنه طهرهما من الأفكار السيئة.

لقد ازدادت قناعته بأنه من الممكن تعلم الخيمياء في الحياة اليومية أيضاً.

ــ "إضافة إلى ذلك، تابع الإنكليزي. فإن لحجر الفلاسفة هذا خصوصية خارقة جداً.. فقطعة صغيرة جداً منه تكفي لتحويل كميات كبيرة من معدن بخس إلى ذهب.

أعجبته الخيمياء هذه.. وازداد اهتمامه بها.. فبقليل من الصبر سيتمكن من تحويل كل شيء إلى ذهب... وبدأ يقرأ سير الأشخاص الذين استطاعوا التوصل إلى ذلك مثل "هولفيتيوس"، و"إيلي"، و"فولكا نولي"، و"جابر".. وكانت كلها قصص ساحرة عاش أبطالها أسطورتهم الذاتية حتى

النهاية.. وسافروا والتقوا بالعلماء.. وقاموا بمعجزات أمام عيون المشككين وملكوا "حجر الفلاسفة" و"إكسير الحياة المديدة."

وهكذا صمم أن يتعلّم الخيمياء من هذه الكتب.. لكنه وجد نفسه تائهاً تماماً.. فليس هناك سوى رسوم.. وتعلميات مشفّرة.. ونصوص غامضة.

ـ "لماذا يستخدمون لغة صعبة الفهم جداً كهذه؟" سأل الشاب ذات مساء. وفي الحال لاحظ أن الإنكليزي سيء المزاج جداً وكأنه يفتقد لكتبه.

ـ "كي لا يفهمها سوى أولئك الذين يملكون حس المسؤولية الكافي لفهمها. تخيَّل لو أخذ الناس جميعاً يحوّلون الرصاص إلى ذهب.. عندها سيفقد الذهب قيمته بعد فترة وجيزة... وحدها العقول المجتهدة الجادة والباحثون المثابرون من يمكنهم الوصول إلى إيجاد الإنجاز العظيم.

وها أنا ذا وسط الصحراء أبحث عن خيميائي يساعدني في فك الرموز."

ـ "في أي عصر كُتبت هذه الكتب؟" سأل الصبي.

ـ "منذ عدّة عصور.."

ـ "لكن في ذلك الوقت لم يكن هناك طباعة.. ولم يكن من اليسير إطلاقاً أن يصل كل الناس إلى الخيمياء. فلماذا استُخدمت هذه اللغة الغريبة وهذه الأشكال الغامضة؟؟"

لم يجب الإنكليزي برغم إلحاح الشاب.. بل قال له.. أن مراقبته للموكب لم تفده في شيء ولم يلحظ خلال كل أيام المراقبة السابقة سوى شيء واحد: هو أن الحديث عن الحرب يزداد يوماً بعد يوم.

أعاد الشاب الكتب إلى صاحبها الذي سأل بفضول متلهف:

ـ "هل استفدت منها كفاية؟" لقد كان بحاجة إلى شخص يحدّثه لينسى خوفه من الحرب.

ـ "لقد علمتني هذه الكتب أن للعالم روح، ومَنْ يستطيع فهم هذه الروح يفهم لغة الأشياء وعرفت أيضاً أن عدداً من الخيميائيين عاشوا أسطورتهم الذاتية.. وانتهى بهم الأمر إلى اكتشاف النفس الكلية، وحجر الفلاسفة، وإكسير الحياة المديدة.

لكنني عرفت في الوقت ذاته أن هذه الأشياء بسيطة جداً لدرجة أنه من الممكن حفرها على زمرّدة."

شعر الإنكليزي بخيبة أمل ـ فسنوات الدراسة الطويلة والرموز السحرية والكلمات الصعبة ـ وأجهزة المختبرات كلها لم تجذب انتباه الشاب، فقال في نفسه: "من المؤكد أن روحه فظة جداً وغير مصقولة كفاية لتمكنه من فهم هذه الأشياء."

أخذ الإنكليزي كتبه وأعادها إلى خروجه المعلّقة على متن الجمل، ثم قال للشاب: ـ "عُد إلى موكبك ـ فلم أجد فيه شيء عظيم النفع."

أخذ الشاب يتأمل سكون الصحراء اللامتناهي ـ والرمل الذي كانت الحيوانات تحمله بحوافرها ـ وقال لنفسه: ـ "لكلٍ طريقته في التعلّم، وطريقته لا تلائمني كما لم تلائمه طريقتي ـ لكن كلانا يسعى وراء أسطورته الذاتية ـ ولهذا أقدّره"

في تلك الفترة، كان الموكب يسير ليلاً ونهاراً وكان الرسل ذوو الوجوه الملثمة يظهرون في كل الأوقات..

لقد أخبرهم الجمّال الذي أصبح صديقاً للشاب أن الحرب بين القبائل قد بدأت.. وأن المحظوظين فقط هم أنفسهم من يستطيعون الوصول إلى الواحة.

كانت الدواب منهكة.. والناس يزدادون صمتاً يوماً بعد يوم..

وأصبح سكون الليل ثقيل الظل.. فإذا ما رغا جمل (وسابقاً لم يكن هناك إلاّ الجمل الذي يرغي) كان الجميع يفزعون.. وكأنها إشارة للحرب.

باختصار كان الخوف يلف كل شيء باستثناء الجمّال الذي كان هادئاً لا يبدو عليه خوف أو قلق..

ـ "أنا حي، قال للشاب وهو يأكل حزمة من البلح.. وذلك في ليلة مظلمة ليس فيها قمر ولا نار. وطالما أنا آكل.. لا أفعل شيء سوى الأكل. فإذا مشيت لن أفعل شيئاً سوى المشي.. هذا هو مبدئي وبناءً عليه إذا ما توجب علي أن أحارب ذات يوم.. فسيكون هناك يوم آخر لأموت فيه. لأنني لا أعيش في ماضيَّ.. ولا في مستقبلي. إني أحيا الحاضر وهو وحده ما يهمني..

إذا استطعت أن تبقى في الحاضر دائماً.. ستكون رجلاً سعيداً وستُدرك أن في الصحراء حياة.. وفي السماء نجوم.. وأن المحاربين لا يقتلون إلاّ لوجود شيء ما في القتال مرتبط بحياة الإنسان.

وهكذا ستجد الحياة احتفالاً أو مهرجاناً كبيراً.. فالحياة هي اللحظة التي تعيشها... لا بل هي هذه اللحظة فقط"

وبعد ليلتين على هذا الحديث.. وبينما كان الشاب على وشك النوم نظر إلى النجم الذي يشير إلى اتجاه المسير.. فبدت الأفق له منخفضة أكثر من ذي قبل لأن مئات النجوم كانت هناك فوق الصحراء.

- "إنها الواحة" قال الجمال.

- "إذاً لماذا لا نذهب إليها فوراً؟!"

- "لأننا بحاجة للنوم."

استيقظ الشاب مع بداية شروق الشمس..

هناك أمامه حيث لمعت النجمات الصغيرة في الليل، كان خيط لا نهاية له من النخيل الذي يشغل اتساع الصحراء.

ـ "لقد وصلنا!" قال الإنكليزي الذي استيقظ لتوه مندهشاً أيضاً.

بقي الشاب صامتاً. لقد تعلّم سكون الصحراء. واستمر في النظر إلى النخيل أمامه.

كان يفكر في الطريق الطويل الذي ما يزال أمامه للوصول إلى الأهرامات.. لكنه يعرف أنه في ذات يوم سيصبح هذا الصباح بالنسبة له مجرد ذكرى. أمّا الآن فهو يعيش اللحظة الراهنة، الاحتفال الكبير الذي حدّثه عنه الجمّال.. وكان يحاول أن يعيش هذه اللحظة مع دروس الماضي وأحلام المستقبل. سيأتي يوم لن تعود فيه هذه الرؤية لآلاف النخلات سوى مجرد ذكرى. أمّا الآن فهي الظل والماء والملجأ من الحرب. تماماً كما يتحوّل رغاء الجمل إلى إشارة للخطر.

والشيء نفسه عندما يمكن لخيط النخيل هذا أن يمثل معجزة.

ـ "العالم يتحدث بأكثر من لغة" فكّر.

ـ "كلما أسرع سير الوقت، تحثُّ المواكب الخطا أيضاً. فكّر الخيميائي، وهو يرى مئات الأشخاص والحيوانات يصلون إلى الواحة.

اندفع السكان مهللين للقاء القادمين الجدد.. وتعالى الغبار ليحجب شمس الصحراء الحارقة.. وبدأ الأطفال يقفزون فرحين برؤية الغرباء..

لاحظ الخيميائي أن شيوخ القبائل قد اجتمعوا ليلتقوا بقائد الموكب ويعقدوا معه اجتماعاً سرياً. لكن كل هذا لا يهمه فلطالما وصل أناس إلى هذه الواحة ـ ثم غادروها.. وتبقى الصحراء والواحة على حالها..

لقد رأى ملوكاً ومتسولين يدوسون امتداد الرمل هذا الذي يتحول حسب اتجاه الريح.. لكن هذه الرمال كانت هي ذاتها التي عرفها منذ كان طفلاً صغيراً.. وما زال حتى الآن يحس بالحبور ذاته الذي يحس به كل مسافر عندما تظهر أمامه خُضرة النخلات بعد امتداد شاسع من الأرض الصفراء والسماء اللازوردية.

ـ "ربما خلق الله الصحراء كي يبتهج الإنسان برؤية النخلات" فكّر.

لكن هناك أمور أكثر عملية تهمه، ففي هذا الموكب الجديد رجل عليه أن يعلّمه جزءاً من أسراره. لقد أخبرته الإشارات بذلك. ومع أنه لا يعرف هذا الرجل إلاّ أن عيناه الخبيرتان ستتعرف عليه بمجرد رؤيته. كان يأمل أن يكون شخصاً موهوباً مثل طالبه السابق.

ـ "لا أعرف لماذا يجب أن تُتداول هذه الأشياء دائماً بالسر من الفم إلى الأذن، فكّر. ربما لأنها تتحدث عن أسرار حقيقية، فاللّه يكشف لوحده وبكرم أسراره لكل المخلوقات."

كان هذا الأمر يحيره ولم يكن يجد له سوى تفسير واحد هو أن هذه الأمور تنتقل بهذه الطريقة لأنها بدون شك مصنوعة من حياة صافية وهذا النوع من الحياة يصعب اجتذابه بأشكال الرسم أو الكلام.

لأن الناس يخضعون لجاذبية اللوحات والكلمات وينسون في النهاية لغة العالم.

اقتيد الواصلون الجدد للمثول مباشرةً أمام شيوخ القبائل في الغيوم. وكاد الشاب ألاّ يصدق عيناه.. فبدل البئر الذي كان يتخيّله محاط ببعض النخلات (حسب الوصف

الـذي قـرأه ﰲ أحـد كتـب التـاريخ)، كـانـت واحـة أكـبر بكـثير مـن معظـم المـدن الإسـبانية. تحتـوي علـى ثلاثمئـة بئـر وخمسمئة نخلة، وعدد هـائل من الخيام الملونة والمبعثرة وسط النخيل.

ـ "إننا نصدّق ألف ليلة وليلة" قال الإنكليزي المتحـرّق للقاء الخيميائي.

كان أطفال الواحة فرحين ينظـرون بفضول إلى الـدواب والجمـال والنـاس الـذين وصلوا.. أمّـا الرجـال فقـد أرادوا أن يعرفـوا مـا إذا كـان الواصلون الجـدد قـد عرفـوا شـيئاً عـن المعركـة.. بينمـا اجتمعـت النسـاء لتتفـرج علـى البضـائع الـتي حملها التجار معهم وتفاصل الأقمشة والأحجار الكريمة.

ﰲ وسـط كـل هـذه الـضوضاء أصـبح صـمت الـصحراء حلماً بعيداً ترك الناس ﰲ عالم من العقول الصافية وهـا هـم الآن فـرحين راضـين.. يتكلمـون ويـضحكون ويغنـون دون توقف..

تُعتبر الواحات ﰲ الصحراء أرضاً حيادية، هـذا مـا قالـه الجمّال للشاب. لأن معظم سـكانها أطفال ونسـاء. حتّـى إنَّ بعض الواحات تتحارب جهاتهـا مـع بعضهـا الـبعض بحيـث إن

المحـاربين يـذهبون للقتـال وسـط رمـال الـصحراء ويتركـون الواحة بسلام كملجأ لهم.

جمع قائد الموكب الناس الـذين معـه، وبـالطبع لم يخـل الأمـر مـن بعـض الـصعوبة.. وبـدأ يعطـيهم تعليماتـه. وأخـبرهم بأنهم سيبقون في الواحـة طالما أن الحـرب بـين القبائـل قائمـة. ثم طلب من الجميع بمن فيهم حراسه الشخصيين أن يسلّموا أسلحتهم لرجال معينين من قِبَل شيوخ القبائل. وقال بـأن هـذه قواعـد الحـرب.. فهكـذا لا يمكـن للواحـات أن تـساعد في التجاء المحاربين.

سـلّم الجميـع أسـلحتهم.. ويـا للمفاجـأة!! فقـد أخـرج الإنكليزي مسدس كرومي من جيب سترته بدوره..

ـ "لماذا المسدس؟" سأل الشاب.

ـ "ليـساعدني علـى الوثـوق بالنـاس." أجـاب الإنكليـزي والسعادة تشرح صدره لبلوغه الغاية التي سعى إليها.

أما الشاب فقد كان يحلم بكنـزه.. وكلمـا اقترب مـن تحقيق حلمه أصبحت الأمور أكثر صعوبة. وازداد بُعـد "حـظ المبتدئ" الذي حدّثه عنه العجـوز والـذي لـن يظهـر ثانيـة.. لقـد عرفه الآن إنه امتحان الإصرار والشجاعة الذي يجعلـه يـسعى

وراء أسطورته الذاتية. وعليه ألاّ يستعجل ويُظهر عدم الصبر.. كـي لا يجـازف بعـدم رؤيـة الإشـارات الـتي وضـعها اللّه علـى طريقه.

ـ "إنه اللّه مَن وضعها على طريقي.." فكّر مندهشاً فهو حتّـى هـذا الحـين كـان يعتبر أن الإشـارات شـيء مـن العـالم. مثل الأكل والنوم.. ومثـل الانطـلاق سـعياً وراء لغـة الحـب.. أو البحـث عـن عمـل. لكـن لم يخطـر ببالـه أبـداً أن تكـون لغـة مستخدمة من اللّه كي تظهر له ما يجب عليه عمله.

ـ "لا تكـن قليـل الـصبر، قـال موجهـاً الكـلام لنفسه. كما قال الجمّال كُل عندما يكـون وقـت الطعـام وفي وقـت المسير سِر."

استـضاف سـكان الواحـة الواصـلين الجـدد في خيـامهم وقدّموا لهم أفضل الأماكـن ـ فهـذا مـا تمليـه علـيهم عـاداتهم وتقاليـدهم.. ونـام الجميـع في اليـوم الأول مستـسلمين للإعيـاء والتعـب بمـن فـيهم الإنكليـزي.. أمّـا الـشاب فقـد كـان في خيمة متطرفة قليلاً فيها خمسة فتيان من سـكان الـصحراء ـ في نفس عمـره تقريبـاً.. وأراد هـؤلاء الفتيـان أن يـسمعوا منـه حكايـات البلـدان الكـبيرة الـتي مـرّ فيهـا.. فحـدثهم الـشاب

عن حياته كراعي.. وكان على وشك البدء بالحديث عن تجربته في دكان الزجاجيات حين دخل الإنكليزي وقال له وهو يقوده إلى الخارج: ـ "بحثت عنك طوال فترة الصباح أين كنت؟.. على كل حال أريدك أن تساعدني في إيجاد مكان إقامة الخيميائي."

في بداية الأمر حاولا إيجاده بوسائلهما الخاصة معتقدين أن الخيميائي يعيش بطريقة مختلفة عن باقي سكان الواحة.. وأنه من الوارد جداً أن يكون هناك موقد مشتعل في خيمته... لكن بعد أن سارا كثيراً أدركا أن الواحة أوسع بكثير مما تخيلا.. وأن فيها المئات من الخيام.

ـ "لقد أضعنا النهار بأكمله تقريباً.. دون جدوى.." قال الإنكليزي وهو يجلس مع رفيقه بجانب أحد آبار الواحة."

ـ "ربما من الأفضل أن نسأل أحداً.." قال له الشاب.

لم يرغب الإنكليزي في كشف وجوده في "الفيوم" لكنه في نهاية الأمر لم يجد بداً من ذلك.. فوافق وطلب من الشاب الذي كان يتحدث بالعربية أفضل منه أن يقوم هو بهذه المهمة.. فوافق هذا الأخير واقترب من امرأة وصلت للتو إلى البئر لتملأ قُربة من جلد الخروف.

"عُمتِ مساءً سيدتي.. هل تعرفين أين يسكن الخيميائي الذي يعيش في هذه الواحة؟" سأل. فأجابته المرأة بأنها لم تسمع من قبل عن هذا قط.. وغادرت في الحال بعد أن قالت له ألاّ يخاطب النساء اللاتي ترتدين السواد لأنهنَّ متزوجات ـ وهذه هي العادات عندهم وعليه احترامها.

شعر الإنكليزي بخيبة أمل كبيرة ـ لقد اجتاز كل هذه المسافة دون فائدة.. وأشفق الشاب على صاحبه لكنه فكّر بأن الإنكليزي يسعى وراء أسطورته الذاتية ـ وعندما يكون شخص في هذه الحالة فإن العالم بأسره يبذل جهده ليجعله ينال ما يسعى إليه: هذا ما قاله الملك العجوز هو لا يخطئ.

ـ "لم أسمع شيئاً حتى الآن عن الخيميائيين لكنني سأحاول مساعدتك." قال الشاب مواسياً. وفي الحال لمعت في عينا الإنكليزي بارقة أمل ـ وقال متحمساً: ـ "نعم بالتأكيد!! ربما بالفعل لا يعرف أحد هنا ما هو الخيميائي. لذلك من الأفضل أن نسأل عن رجل يعالج كل الأمراض في القرية."

انتظر الاثنان بجانب البئر ـ وجاء العديد من النساء الملتفحات بالسواد ليحضرن الماء ـ وحاول الإنكليزي دفع الشاب للحديث معهن ـ لكن هذا الأخير احترم العادات ـ وأخيراً اقترب رجل من البئر فأسرع الشاب إليه وسأله: ـ "هل تعرف شخص يعالج كل الأمراض هنا؟"

ـ "إن اللّه من يشفي كل الأمراض، أجاب الرجل والذعر واضح في وجهه. إنكما تبحثان عن السحرة.." وابتعد مسرعاً وهو يتلو بعض الآيات القرآنية. وبعد قليل وصل رجل آخر أكبر سناً من سابقه ولا يحمل في يده سوى دلو صغير ـ فدنا منه الشاب وطرح السؤال ذاته ـ فأجابه الرجل قائلاً:

ـ "لماذا تريد معرفة رجل كهذا؟.."

ـ "لأن صديقي ذاك قام برحلة طويلة ليلتقيه.."

ـ "إن كان هناك وجود لرجل كهذا هنا.. فهو بالتأكيد ذو سلطة كبيرة. وليس بإمكان أحد مقابلته على هواه، ولا حتى شيوخ القبائل ـ بل هو مَن يقرر ذلك بنفسه ـ يا بني من الأفضل لكما أن تنتظرا حتى نهاية الحرب ثم تتابعا المسير مع موكبكم. ولا تسعوا للدخول في حياة الواحة.."

ختم العجوز قوله مبتعداً..

أفرح كلام الرجل الإنكليزي ـ فقد تأكد الآن بأنه على الطريق الصحيح.

وصلت شابة لا ترتدي السواد إلى البئر.. كانت تحمل جرّة على كتفها وتضع حجاباً على رأسها.. لكن وجهها كان مكشوفاً. فاقترب منها الشاب ليسألها عن الخيميائي ـ وفجأة توقف الزمان ـ وانبثقت النفس الكلية بكل قوتها أمامه.. يا لهاتين العينين السوداوين.. ويا لهذه الشفاه المحتارة المترددة بين الابتسامة والصمت.. لقد فهم الآن في هذه اللحظة الجزء الأهم والأكثر جوهرية وعملية من لغة العالم.. الجزء الذي تسمع فيه كل كائنات الأرض بقلوبها.. إنه الحب ـ شيء أقدم من الإنسان والصحراء.. وبرغم ذلك يبقى بألقه وقوته ويظهر كالسحر في كل مكان تلتقي فيه نظرتان كما التقت الآن هاتان النظرتان بالقرب من البئر ـ بقيت الشفاه ترتجف محتارة ثم اختارت الابتسامة أخيراً.. نعم، إنها إشارة.. الإشارة التي طالما انتظرها دون أن يكون منتبهاً لذلك.. إنها الإشارة التي بحث عنها في كتبه وبالقرب من نعاجه وفي الزجاجيات وصمت الصحراء.

الحب.. إنه لغة العالم الصافية التي لا تحتاج إلى تفسير لأن الكون ليس بحاجة إلى أي تفسير كي يتابع دورانه في الفضاء اللامتناهي..

كل ما أدركه الشاب في تلك اللحظة هو أنه أمام امرأة حياته التي يجب أن تكون قد عرفته أيضاً.. دون أن يحتاجا للكلمات.. كان متأكداً من شعوره ومن أنها المرأة التي طالما انتظرها.. وحتى إن كان أهله وأهل أهله قد قالوا منذ الأزل أن عليهما أن يتقربا لبعضيهما البعض أولاً، وأن ينخطبا.. وأن يعرف كل منهما الآخر جيداً.. وأن يكون لديه المال قبل الزواج.. فإن مَنْ قال هذا لم يعرف بالتأكيد لغة العالم، لأنه عندما نغرق في هذه اللغة يصبح من السهل أن نفهم أنه دائماً هناك شخص في العالم ينتظر شخص آخر.. وأن هذا سيحصل سواءً في وسط الصحراء، أو في قلب المدن الكبرى.. وما إن يلتقي هذان الشخصان وتتعانق نظراتهما.. حتى يفقد الماضي والمستقبل كل معانيهما ولا يعود هناك وجود، سوى لهذه اللحظة الراهنة.. وهذان برهان قوي على أن كل شيء تحت قبة السماء قد كتب بنفس اليد.. اليد التي تولّد الحب.. والتي خلقت روح شقيقة لكل كائن، وهذا الكائن يعمل ويرتاح يبحث عن الكنوز في

وضح النهار ولو كان الأمر على غير ذلك لأصبحت أحلام الجنس البشري برمّته بلا معنى.

ـ "مكتوب" قال الشاب.

نهض الإنكليزي وهزَّ رفيقه –"هيا.. اسألها.."

اقترب الشاب من الفتاة فابتسمت هذه من جديد وابتسم أيضاً

ـ "ما اسمك؟" سألها.

ـ "اسمي فاطمة" أجابت مخفضة نظرها.

ـ "إنه اسم الكثيرات من النسوة في البلد التي أتيت منها.."

ـ "هذا اسم ابنة الرسول. وقد حمله محاربينا إلى هناك."

كانت الشابة الرقيقة تذكر المحاربين بإعجاب.. بينما كان الإنكليزي يلحُّ على رفيقه.. فسألها الشاب إن كانت تعرف شيئاً عن الرجل الذي يعالج كل الأمراض. فأجابته قائلة:

ـ "إنـه الرجـل الـذي يعـرف أسـرار العـالم.. ويتحـدث مـع رجل الصحراء. والجن هم عفاريت الخير والشر."

وأشـارت الـشابة إلى جهـة الجنـوب حيـث كـان يـسكن هذا الشخص الغريب. ثم مـلأت جرتهـا وغـادرت.. وفي الحـال انطلـق الإنكليـزي إلى حيـث أشـارت ـ أمّـا الـشاب فبقـي بجانـب البئـر مـذهولاً.. وكـان متأكـداً مـن أنـه ذات يـوم ستشرق الشمس وعطر هذه المرأة على وجهه.. إنه يحبها.. نعم يحبهـا حتـى قبـل أن يعـرف بوجودهـا.. وحبهـا هـو الـذي جعلـه يكتشف كل أسرار العالم..

وفي اليوم التالي ـ عاد الشاب إلى البئر لينتظر محبوبتـه.. فـإذا بـه يُفاجـأ بـالإنكليزي هنـاك ـ جالـساً يتأمـل الـصحراء للمـرة الأولى ــ ومـا إن رأى الـشاب حتـى بـادره بـالقول: ــ "انتظرته طيلة فترة بعد الظهر والمساء. ووصل أخيراً مع ظهـور أول النجمات ـ فأخبرته عمّا أسعى إليه. وسـألني إن سـبق لـي أن حوّلـت الرصـاص إلى ذهـب فقلـت لـه إن هـذا بـالـضبط مـا أود تعلّمـه. فمـا كـان منـه إلاّ أن انـصرف بعـد أن قـال لـي كلمتان فقط: "اذهب وحاول"

لاذ الشاب بالصمت.. لقد قطع الإنكليزي كل هذه المسافة ليسمع كلمات يعرفها مسبقاً ـ هذا ذكره بما حدث له مع العجوز الذي أخذ منه ستة خراف مقابل كلمات يعرفها.

ـ "إذاً حاول!.." قال للإنكليزي.

ـ "وهذا ما سأفعله.. وسأبدأ به في الحال.." قال الإنكليزي هذا وانصرف فوراً.. وبعد قليل جاءت فاطمة كي تملأ جرتها فاقترب الشاب منها وقال: ـ "جئت أقول لك شيئاً.. أريدك زوجة لي ـ إني أحبك."

جمدت الشابة وبدأ إناؤها يطفح –"سأنتظرك هنا كل يوم.. لقد ـ لقد عبرت الصحراء كي أبحث عن كنز مدفون قرب الأهرامات.. وكانت الحرب بالنسبة لي لعنة.. لكنها الآن انقلبت نعمة لأنها تُبقيني هنا بالقرب منكِ.."

ـ "ستنتهي هذه الحرب ذات يوم.." قالت الشابة..

نظر الشاب إلى نخيل الواحة ـ لقد كان راعياً لديه قطعان من الخراف ـ لكن فاطمة أهم من الكنز.

ـ "المحاربون يبحثون عن كنوزهم، قالت وكأنها قد حزرت أفكاره.

ونساء الصحراء فخورات بمحاربيهم.." ثم ملأت جرتها من جديد وغادرت..

أصبح الشاب يذهب إلى البئر كل يوم وينتظر فاطمة.. ثم يلتقيا ويتحدثان طويلاً.. حدثها عن حياته كراع.. وعن لقائه بالملك.. وعن محل الزجاجيات ويوماً بعد يوم تحولا إلى صديقين حميمين وأصبح الوقت بالنسبة له طويلاً جداً طوال النهار باستثناء الخمس عشرة دقيقة التي كان يمضيها معها..

وهكذا مرَّ ما يقارب الشهر على وجوده في الواحة.. وفي أحد الأيام دعا رئيس الموكب الجميع للاجتماع.. ثم خاطبهم قائلاً..:

.."لا نعلم متى ستنتهي هذه الحرب الشعواء.. لذلك لا يمكننا متابعة الرحلة ـ فربما تستمر المعارك لوقت طويل جداً.. ربما سنوات ـ فكلا الطرفين لديه محاربين مليئين بالشجاعة والإقدام، وكلاهما معجبين بالقتال ومسلّحين بشكل جيد جداً. إنَّ هذه الحرب ليست من ذلك النوع الذي بين الأخيار والأشرار.. إنها حرب بين قوات متناظرة تتصارع حُباً بالغزو والفتوحات.. وهذا النوع من المعارك يستغرق أطول

بكثير من غيره، لأن الله في هذه الحالة يكون مع الطرفين في آن واحد."

وعند المساء، التقى الشاب بفاطمة وأعاد عليها كل ما قيل في الاجتماع.

فقالت له: - "في لقائنا الثاني حدثتني عن حبك.. وفيما بعد أطلعتني على أشياء جميلة جداً، مثل اللغة والنفس الكلية. وكل هذا جعل مني جزء منك"

كان وقع صوتها في نفسه أجمل من غناء الريح مع سعف النخيل..

ثم تابعت قائلة: ـ "منذ زمن طويل وأنا آتي إلى هنا بجانب هذه البئر وأنتظرك.. لم أذكر ماضيَّ.. ولا العادات والتقاليد ولا الطريقة التي يرغب الرجال أن تسلكها بها نساء الصحراء. ومنذ طفولتي وأنا أحلم بأن الصحراء ستحمل لي ذات يوم أجمل هدية في حياتي. وها هي اليوم تقدّمك لي.."

أراد أن يأخذ يدها بين يديه.. لكنها أمسكت بأذني الجرّة وتابعت حديثها: ـ "لقد حدثتني عن أحلامك.. وعن الملك العجوز ـ وعن الكنز ـ والإشارات. ولهذا أنا لا أخشَ

شيئاً.. فالإشارات هي من حملتك إليَّ.. وأنا أشكل جزءاً من حلمك.. من أسطورتك الذاتية كما تقول أنت. ولهذا السبب بالذات أريدك أن تتابع طريقك باتجاه ما أتيت ساعياً وراءه.. فإذا توجب عليك الانتظار حتى نهاية الحرب فهذا سيكون جيداً جداً. لكن إذا كان عليك الانطلاق بالقريب العاجل فانطلق نحو أسطورتك.

إن الكثبان تتغير بفعل الريح لكن الصحراء تبقى على حالها.. وهذا هو حال حبنا.

مكتوب.. إن كنت جزءاً من أسطورتك فإنك ستعود ذات يوم."

حزن الشاب كثيراً.. وأخذ يفكر بالرعاة الكثيرين الذين عرفهم.. والذين كانوا يتألمون كثيراً عندما يتركون زوجاتهم ليسعوا في البراري. فالحب يُرغمنا على الوجود بجانب من نحب.

في اليوم التالي قال لفاطمة كل هذه الأشياء التي دارت في باله. فقالت له: - "إن الصحراء تأخذ رجالنا.. ولا تعيدهم دائماً.. لذلك يتوجب علينا أن نعتاد ذلك فنراهم في الغيوم التي تمرُّ دون أن تمطر.. وفي الدابات التي تختبئ بين

الحجارة.. وفي الماء المدرار الذي يخرج من الأرض.. باختصار نراهم في كل شيء.. لأنهم يصبحون جزءاً من النفس الكلية..

وحين يعود بعضهم.. تفرح النساء جميعهن.. لأن عودتهم تعطيهن الأمل بعودة رجالهم ذات يوم. كنت أنظر إلى تلك النسوة وأحسدهن على هذه السعادة.. أمَّا الآن فأنا أيضاً سيكون لي مَن أنتظره.. إني امرأة صحراء وأنا فخورة بذلك.. أريد أن ينطلق رجلي حراً مثل الريح التي تحرّك الكثبان.. أريده أن يمنحني فرصة رؤيته في السحاب والدواب والماء.."

ذهب الشاب ليبحث عن الإنكليزي ويحدّثه عن فاطمة ففوجئ بأنه قد بنى موقداً صغيراً بجانب خيمته.. موقداً غريب الشكل.. ووضع فوقه قارورة شفافة. وأخذ يحرّك النار بقطعة خشب ويتأمّل الصحراء وكانت عيناه تلمعان أكثر مما كانت عليه حين كان يمضي كل وقته غارقاً في الكتب.

ـ "إنها المرحلة الأولى من العمل.. قال. عليَّ تنقية الكبريت من شوائبه ولكي أتوصل إلى ذلك يجب ألاّ أخشى

الفشل.. فخشية الفشل هي التي منعتني حتى الآن من تجربة اكتشاف الإنجاز العظيم. الآن بدأت ما كان يمكنني أن أبدأه منذ عشر سنوات. لكنني سعيد بأنني لم أنتظر عشرين سنة أخرى أيضاً.

أخذ يتأمل الصحراء بشرود وهو يحرّك النار كي يحافظ على اشتعالها.

وبقي الشاب معه حتى تلونت الصحراء بلون الشمس الغاربة الوردي. عندها أحس برغبة ملحَّة في الذهاب إلى هناك، ليرى ما إذا كان الصمت يستطيع أن يجيب عن تساؤلاته.. فسار على غير هدى لبعض الوقت.. لكن دون أن يفقد رؤية نخلات الواحة. كان يسمع الريح ويشعر بالحصى تحت قدميه. ومن وقت لآخر كان يجد محارة.. إن هذه الصحراء كانت في أحد الأيام بحراً واسعاً.. وأخيراً استراح فوق حجر كبير وسرح في الأفق المقابل.. لم يكن يستطيع تصوّر الحب دون أن يخلطه بفكرة الامتلاك. إن فاطمة امرأة من الصحراء.. وإن كان هناك شيء يمكنه مساعدته على الفهم.. فهو الصحراء بالتأكيد.

بقي هكذا شارد الذهن دون أن يفكر بشيء.. إلى حين شعر بشيء يتحرك فوق رأسه. فنظر إلى السماء فإذا بباشقين يحلقان في السماء العالية. راقبهما ولاحظ أنهما يرسمان أشكالاً بطيرانهما على شكل خطوط غير منتظمة. لكنها ذات معنى بالنسبة لهما.

لم يستطع فك هذه الخطوط ببساطة. فقرر أن يلاحق تحركاتهما بنظره علّه يستطيع قراءة رسالة ما. تتمكن فيها الصحراء من تفسير الحب دون ملكية.

شعر برغبة ملحة في النوم.. لكن قلبه رجاه ألاّ يستسلم للنعاس.

- "إني أعرف لغة العالم، قال. وكل شيء هنا له معنى. حتى طيران البواشق، نعم.. عندما نُحب، يصبح للأشياء معانٍ أكثر.." إنه الآن مليء بالمعرفة من خلال ذلك الحب الذي يكنّه لامرأة.

فجأة انقضَّ أحد الباشقين على الآخر فلمعت في ذات اللحظة رؤية مختصرة ومفاجئة في ذهن الشاب..:

عصابة مسلّحة بسيوف مسلولة ستهاجم الواحة.

وبلمح البصر اختفت الرؤية لكنها تركت فيه أثراً فعّالاً. إنها ليست سراب فالسراب رغبات تتجسد على رمال الصحراء.. وهو لا يرغب برؤية جيوش تستولي على الواحة.

حاول نسيان ما حدث والعودة لتأملاته وللغرق في رمال الصحراء الوردية والحجارة الصلبة ـ لكن شيئاً ما في داخله لم يتركه بسلام.

ـ "اتبع الإشارات دائماً.." هذا ما قاله العجوز له.

فكّر بفاطمة ثم تذكّر الرؤية التي رآها وتوقّع تحققها عما قريب.

حاول أن يسيطر على فزعه.. ومشى باتجاه النخلات. ويا للغرابة!! لقد أصبحت الواحة هي الخطر الآن بينما تحولت الصحراء إلى مكان آمن.. إنها اللغة المتعددة للأشياء..

كان الجمّال جالساً تحت أحد النخلات يتأمل هو أيضاً غروب الشمس، عندما أطلَّ الشاب عليه من خلف أحد الكثبان:

ـ "هناك جيش يقترب فقد حصلت لدي رؤية.."

ـ "الصحراء تملأ قلوب الرجال بالرؤى" أجابه الجمّال.

فحدّثه الشاب عن الباشقين وكيف كان يراقب طيرانهما عندما غرق في النفس الكلية.

لم يُجب الجمّال بشيء.. لقد فهم ما قاله الشاب.. فهو يعرف أن أي شيء على وجه الأرض يمكنه رواية قصة الأشياء كلها.. كفتح الكتاب على صفحة ما لا على التعيين.. أو تفحص يد أحد ما ، أو طيران الطيور.. أو أوراق اللعب.. أو أي شيء آخر. إن أي شخص بإمكانه أن يكتشف العلاقة الموجودة بين كل الأشياء الحية في الحقيقة.. إن الأشياء لا تكشف شيئاً بحد ذاتها.. بل هو الإنسان مَن يعرف طريق التغلغل في النفس الكلية عندما يراقب الأشياء.

وهناك الكثير ممن يكسبون عيشهم في الصحراء من خلال التغلغل في النفس الكلية بسهولة إنهم مَن يعرفون باسم العرافين. وتخشاهم النسوة والشيوخ.. أمّا المحاربين فقد كانوا نادراً ما يشاورونهم لأنه ليس بإمكانهم الذهاب إلى الحرب إن كانوا يعرفون مُسبقاً في أية لحظة سيموتون.. وهم الذين يفضلون مذاق الصراع وتأثير المجهول.

إن المستقبل مكتوب من الله.. ومهما يكن فيه فهو بالتأكيد لمصلحة الإنسان. وهكذا يعيش المحاربين حاضرهم بكل بساطة.. والحاضر مليء بالمفاجآت وعليهم فيه أن يكونوا متيقظين لعدّة أمور: أين سيف العدو ـ وأين حصانه ـ وأية خبرية عليهم القيام بها ليتجنبوا الموت..؟!

لم يكن الجمّال محارباً.. وقد سبق له أن سأل عرّافين. وأخبره الكثيرون منهم أشياء صحيحة.. وأخبره آخرون أشياء خاطئة. وفي أحد الأيام سأله أحدهم وهو الأكبر سناً والأكثر رعباً..: "لماذا تهتم إلى هذا الحد بمعرفة المستقبل.." فأجابه الجمّال.." —"كي أستطيع عمل بعض الأشياء.. وتغيير مجرى الأخرى التي لا أحب أن تقع لي.."

ـ "بهذه الطريقة — لا يعود هذا مستقبل ـ " قال العرّاف

ـ "أريد معرفة مستقبلي كي أتحضّر لما سيحدث.."

ـ "إن كان ما سيحدث جيداً ـ فهذه مفاجأة سارة.. أمَّا إن كان شيئاً سيئاً فإنك ستعاني منها مرتين ـ "

ـ "أريد كشف المستقبل لأنني إنسان ـ والناس جميعاً يعيشون تبعاً لمستقبلهم.."

بقي العراف صامتاً للحظات ـ كان اختصاصه لعبة الأعواد التي تُرمى على الأرض.. ثم يُفسَّر المستقبل حسب طريقة وقوعها.

في ذلك اليوم لم يستخدم أعواده.. بل لفها بقطعة قماش ووضعها في جيبه. قال للجمّال:

ـ "إني أكسب قوتي بالتنبؤ بمستقبل الناس. فأنا أعرف علم الأعواد وأعرف كيف أستخدمها لأدخل إلى ذلك المجال حيث كل شيء مكتوب مسبقاً. وهناك يمكنني قراءة الماضي ـ واكتشاف ما قد نُسي ـ وفهم إشارات الحاضر. عندما يسألني الناس لا أقرأ المستقبل.. بل أخمنه لأن المستقبل ملك لله وحده.. وهو مَن يكشفه فقط في مناسبات غير عادية.. كيف أستطيع أن أخمن المستقبل..؟ من خلال إشارات الحاضر ففي الحاضر تكمن الأسرار.. وإذا فهمته يمكنك تحسينه.. وإذا حسنته سيكون القادم حسناً أيضاً.. انس المستقبل وعش كل يوم في حياتك حسب تعليمات الشريعة.. واتكل على اللّه بالنسبة لأولادك.. فكل يوم يحمل في طياته الأبدية.."

أراد الجمّال أن يعرف ما هي تلك الظروف الاستثنائية التي يسمح فيها الله برؤية المستقبل ـ فقال له العرّاف:

ــ "ذلك حين يكشفه الله بنفسه.. وهو نادراً ما يكشفه.. فإذا حصل ذلك يكون لسبب واحد: هو أن هذا المستقبل كُتب كي يتغير.."

فكَّر الجمَّال إن الله أراد أن يكون الشاب وسيلته لذلك أظهر له المستقبل.. فقال له: ــ "اذهب ولاقي شيوخ القبائل وأخبرهم عن المحاربين الذين يقتربون.."

ـ "سيسخرون مني.."

ـ "لا تقلق فهم رجال صحراء ـ ورجال الصحراء معتادون على الإشارات.."

ـ "إذاً فهم يعرفون ذلك.."

ـ "إنهم لا يهتمون لذلك.. فهم يعتقدون أنه إذا أراد الله أن يطلعهم على شيء فإنه سيبعث لهم بشخص يخبرهم.. وقد حدث هذا مرّات كثيرة وأنت رسول الله إليهم.."

فكّر الشاب قليلاً وتذكّر فاطمة.. ثم قرر الذهاب للقاء شيوخ القبائل.

ـ "إني أحمل رسالة الصحراء.." قال للحارس الذي كان يحرس باب الخيمة الواسعة البيضاء المنصوبة في وسط الواحة.

ـ "أريد محادثة الشيوخ.." تابع الشاب.

لم يُجب الحارس بل دخل إلى الخيمة وبقي فيها مدّة طويلة ثم خرج برفقة شاب عربي يرتدي ثوباً أبيضاً وحلياً ذهبية.. قص الشاب على هذا العربي ما رآه.. فطلب منه العربي الانتظار قليلاً ودخل.

بقي الشاب ينتظر.. دخل وخرج عدد كبير من العرب والتجار.. وهو ما يزال واقفاً عند باب الخيمة ـ ثم أرخى الليل سدوله.. وبدأت المواقد تنطفئ.. وسرعان ما أصبحت الواحة صامتة كالصحراء. ولم يبق من ضوء فيها سوى ذلك الذي يُنير الخيمة الكبيرة.. كل هذا والشاب واقف عند باب الخيمة ولا يتوقف عن التفكير بفاطمة وبالحديث الذي دار بينهما والذي لم يفهمه جيداً..

وبعد ساعات من الانتظار طلب منه الحارس أخيراً أن يدخل.. ويا لروعة ما رأى.. لم يخيَّل له أبداً وجود خيمة كهذه وسط الصحراء.. كانت أرضها مغطاة بأجمل سجاد

داسته قدميه في حياته.. ومن الأعلى تدلّت الثريات ذات المعدن المذهب والمرصَّع بأجمل الحلي.. والمشتعلة بعدد من الشموع.. وكان الشيوخ جالسين في صدر الخيمة على شكل نصف دائرة وقد تركوا أيديهم وأرجلهم ترتاح بفخامة على وسادات من الحرير المزركش.. بينما الخدم يذهبون ويأتون بأطباق فضيَّة تطفح بما لذَّ وطاب ـ وكان آخرون يقدمون الشاي.. وغيرهم ينتبه لجمرات الأراكيل فيفوح عطر لذيذ منها يعطّر الجو كله..

كان في الخيمة ثمانية شيوخ.. لكن الشاب أدرك في الحال من هو الأرفع مكانة بينهم.. إنه مَن يجلس في وسط نصف الدائرة ويرتدي الأبيض والذهب. وكان بجانبه الشاب الذي كلّمه منذ قليل في الخارج..

ـ "من الغريب الذي تحدَّث عن الرسالة؟" سأل أحد الشيوخ وهو ينظر إليه ـ

ـ "إنه أنا.." أجاب وروى ما رآه.

ـ "ولماذا تقول الصحراء هذه الأشياء لرجل جاء من بعيد.. في حين أنها عرف أننا هنا منذ أجيال عديدة؟" قال شيخ آخر.

ـ "لأن عينـاي لم تعتـد بعـد علـى الـصحراء.. لـذلك يمكنهـا أن تـرى مـا لم تعـد العيـون المعتـادة جـداً تتوصـل لرؤيتـه.." قـال الـشاب ثـم أضـاف لنفسـه: "كمـا أنـني أعـرف الـنفس الكليـة" لكنـه لم يقـل هـذا لأن العـرب لا يعتقـدون بمثل هذه الأشياء.

ـ "الواحـة أرض محايـدة.. لا يهاجمهـا أحـد.." قـال شـيخ ثالـث.

ـ "هذا ما رأيت.. فإذا لم تصدقوني فهذا شأنكم.."

خيَّم صمت طويل على الخيمة تبعته أحاديث سـرية حـادة بـين شـيوخ القبائـل كـانوا يتكلـون بلهجـة عربيـة لم يفهمهـا الشاب. فأراد الانسحاب مـن بينهم لكـن الحـارس طلـب منـه الانتظار. بدأ الرعب يتسلل إلى قلبه.. فالإشارات تـدلُّ علـى أن شيئاً ما ليس على ما يُـرام.. وشـعر بالنـدم لأنـه حـدَّث الجمَّـال عن هذا الأمر..

وأخيراً ابتسم الرجل الأكبر الجالس في الوسط ابتسامة غير مرئية تقريباً.. فاطمأن الشاب.

لم يشارك هـذا الرجـل العجـوز بالمناقشة وهـو حتـى الآن لم ينـبس بحـرف واحـد. لكـن ابتـسامته تلـك جعلـت الـشاب

يشعر بتردد السلام الذي يجتاز الخيمة من جانب إلى آخر.. فهو معتاد على اللغة الكونية.. والآن حدسه يقول له أنه فعل خيراً بمجيئه إلى هنا..

انتهت المحاولات وصمت الجميع ليسمعوا كلام كبيرهم.. فالتفت هذا إلى الأجنبي بملامح باردة وجادة ثم قال له:

ـ "في أحد البلاد البعيدة منذ ألفي سنة.. رُمي رجل يؤمن بالأحلام في بئر عميقة.. ثم انتُشل منها وبيع كعبد لتجار من عندنا.. وقد قادوه هؤلاء إلى "مصر".. وكلنا نعرف أن من يؤمن بالأحلام يعرف تفسيرها أيضاً.." –"وإن كان لا يستطيع دائماً تحقيقها.." فكّر الشاب متذكراً الغجرية العجوز..

وتابع الشيخ قائلاً: ـ "وبفضل أحلام الفرعون بالبقرات العجاف والسمان استطاع هذا الرجل إنقاذ مصر من المجاعة ـ كان اسمه "يوسف" وكان مثلك غريب في أرض غريبة ـ وكان أيضاً في مثل عمرك تقريباً.."

صمت الجميع ـ وبقي الشيخ ينظر إلى الشاب بنظرات جافة..

ـ "نحن نتبع التقاليد دائماً ـ تابع الشيخ. في ذلك الوقت أنقذت التقاليد مصر من المجاعة ـ وجعلت من شعبه الأغنى بين الشعوب جميعاً.. إن التقاليد تعلمنا كيف يجب على الرجال اجتياز الصحراء وكيف يزوجون بناتهم.. والتقاليد تقول إن الواحة أرض حيادية لأن المعسكرات لديها واحات وهي ضعيفة أمام العدوان.."

كان الجميع صامتون يصغون لكلام العجوز الذي تابع قائلاً: ـ "والتقاليد تقول لنا أيضاً أن نصدّق رسائل الصحراء.. إن كل ما نعرفه قد علمتنا إياه الصحراء."

أشار الشيخ بيده فهب الجميع قياماً.. وانتهى الاجتماع وأطفئت الأراكيل وأصلح الرجال هندامهم وتهيئوا للخروج.. واستعد الشاب بدوره ليترك المكان لكن العجوز استأنف الكلام: ـ "غداً سنخرق الاتفاق القاضي بعدم حمل السلاح داخل الواحة. سننتظر الأعداء طوال النهار.. وعندما تميل الشمس على الأفق سيأخذ الرجال أسلحتهم مني.. ومقابل كل عشرة من رجال العدو سيأخذون ليرة ذهبية. لكن اعلموا أن الأسلحة لن تُخرج إلاّ من أجل الذهاب إلى المعركة فهي مقلّبة مزاجية شأنها شأن الصحراء وإذا ما أخرجناها من غير سبب يمكنها فيما بعد أن ترفض إطلاق النار.

وإذا لم يُستخدم أياً منها غداً فإن سلاحاً واحداً على الأقل سيكون موجهاً إلى صدرك.."

خرج من الخيمة فوجد الظلام حالكاً وليس هناك ما ينير الواحة سوى نور البدر ـ كان عليه أن يسير مدّة ٢٠ دقيقة كي يصل إلى خيمته.

أخذ يمشي على مهل وهو غارق في النفس الكلية.. كان مضطرباً جداً من كل ما جرى ـ فمن الممكن أن تكون حياته ثمناً لذلك.. يا له من ثمن باهظ.. لكنه في أحد الأيام قد تخلّى عن شيء غال أيضاً إنها خرافه التي باعها من أجل أسطورته الذاتية.. لكن لا بأس فكما يقول الجمال إن الموت غداً يكلّف ما سيكلفه في يوم آخر.. فكل يوم يُخلق إمّا لنعيشه أو لنترك فيه هذا العالم.. إن كل شيء في هذا الكون مرتبط بكلمة واحدة: "مكتوب".

سار بصمت دون أن يشعر بأي ندم على ما فعله.. إذا كان مكتوب عليه أن يموت غداً فهذا ما سيكون، لأن اللّه ليس لديه رغبة في تغيير مستقبله.. وعلى كل الأحوال إن مات فسيكون قد اجتاز المضيق وعمل في دكان كريستالات.. وعرف الصحراء وعيون فاطمة.. لقد عاش

كل يوم من أيامه حتى أقصاه منذ أن غادر منزله وذلك من زمن بعيد.. إذا كان مكتوب عليه أن يموت غداً.. فإن عيونه على الأقل قد رأت أشياء أكثر بكثير من عيون الرعاة الآخرين.. وهو فخور بذلك.

وبينما هو شارد في أفكاره هذه هبت ريح قويّة جداً.. وسمع صوت مثل الزمجرة.. واجتاحت المكان غيمة غبار غطت ضياء القمر. فانبطح الشاب أرضاً.. ثم رفع رأسه فجأة ليرى حصان أبيض ضخم الجسم يشبُّ أمامه ويصهل بشكل مرعب جداً. وبالكاد استطاع تمييز ما يجري.. وحين تبددت غيمة الغبار رأى منظراً أرعبه كما لم يرتعب من قبل.. كان هناك رجل يرتدي السواد على ظهر ذلك الحصان.. ويعتمر لثام يُخفي كل وجهه باستثناء العينين.. وكان يحمل على كتفه الأيسر صقراً. كان لباس ذلك الرجل يشبه لباس رسول الصحراء لكن كان يتمتع بقوّة حضور لا يملكها أي رجل آخر في العالم.

استل الفارس سيفه الضخم ذو الشفرة المقوسة من غمده المعلّق على السرج فلمع الفولاذ في ضوء القمر.

ـ "مَن ذا الذي تجرأ وقرأ طيرا البواشق؟" سأل بصوت جهوري بدى يتردد في نخلات الفيوم الخمسة آلاف.

ـ "أنا.." قال الشاب متذكراً تمثال القديس جاك الذي يدوس الكفار بحوافر جواده الأبيض.. وهنا يحدث نفس الشيء ما عدا أن الوضع مقلوب.

ـ "أنا تجرأت.." كرر مطأطئ الرأس استعداداً لتلقي الضربة القاضية لكن بدل أن يهوي عليه بحسامه قال له: ـ "سينجو العديد من الأرواح البشرية لأنك لم تحسب حساباً للنفس الكلية.." قال هذا وانخفضت يده ببطء إلى أن لامس طرف السيف جبين الشاب فسالت نقطة دم منه.. لم يفكر بالهرب.. فقد سيطر عليه استبشار غريب ـ "سيموت من أجل أسطورته الذاتية.. ومن أجل فاطمة.. إذاً كانت الإشارات صادقة.. فها هو العدو هناك.. وهو الآن على وشك أن يُقتل لكنه لم يكن مهتماً لذلك.. فهناك النفس الكلية وبعد قليل سيصبح جزءاً منها وغداً سيدخل العدو فيها أيضاً.

جمد الاثنان في مكانهما وبقي السيف على جبين الشاب...

وبعد قليل سأل الفارس بحدّة: ـ "لماذا قرأت طيران البواشق.."

ـ "لم أقرأ سوى ما أرادت هي أن تقوله. لقد أرادوا إنقاذ الواحة. إنكم ستموتون غداً فرجال الواحة أكثر عدداً منكم.."

ـ "ومَن أنت لتغيير القدر المكتوب من اللّه.." قال الفارس وسيفه ما يزال على جبين الشاب..

ـ "خلق اللّه الجيوش كما خلق الطيور.. وهو مَن أظهر لي لغة الطيور.. فكل شيء مكتوب بيد واحدة.." قال الشاب متذكراً ما كان قد قاله الجمّال..

وأخيراً رفع الفارس سيفه فانفرج الشاب لكنه لم يفر.

ـ "احذر المنجمين فعندما تكون الأشياء مكتوبة لا يمكن تجنبها.."

ـ "لم أرى سوى جيش.. لكنني لم أعرف نتيجة المعركة.."

بدى الفارس راضياً عن هذا الجواب لكنه مع ذلك لم يرجع السيف إلى غمده.. بل سأل الشاب ـ "وماذا يفعل غريب في أرض غريبة..؟"

ـ "إنـي أسـعى وراء أسـطورتي الذاتيـة.. إنهـا شـيء لا يمكنك فهمه.."

عندها أعاد الفارس السيف إلى غمده.. وأطلق الصقر صيحة غريبة.. فبدأ الشاب يسترخي..

ـ "عليَّ اختبار شجاعتك ـ قال الفارس. فالشجاعة أعظم فضيلة لمن يسعى وراء أسطورته الذاتية.."

استغرب الشاب من هذا الرجل الذي يتحدث عن أمور لا يعرفها إلاّ قلّة من الناس.

ـ "عليك ألاّ تتباطأ، حتى عندما تقطع شوطاً كبيراً.. تابع الرجل كلامه. يجب أن تحب الصحراء ـ لكن لا تثق بها كثيراً.. لأنها محك الرجال.. فهي تختبر كل رجل من خطواته ـ وتقتل من يترك نفسه ينساق للعبث.."

ذكّرته كلماته هذه بكلمات الملك العجوز.

ـ "اسمع، إذا وقعت الحرب، وبقي رأسك على كتفيك تعال غداً بعد غروب الشمس لرؤيتي.." قال الفارس وهو يغادر ممسكاً السوط بنفس اليد التي كانت تحمل السيف.. فشبَّ الحصان من جديد مثيراً غيمة من الغبار..

ـ "أين تسكن؟" صاح الشاب بينما كان الفارس يبتعد.

أشارت اليد التي كانت تمسك السوط إلى الجنوب..

لقد التقى بالخيميائي.

في صبيحة اليوم التالي كان هناك ألفي رجل مسلّح بين نخيل الفيوم. وقبل أن تصل الشمس إلى أوجها ظهر خمسمئة محارب في الأفق.. وتقدموا باتجاه الواحة ثم دخلوها من الشمال. كانوا يبدون كبعثة مسالمة لكن الأسلحة كانت مخبأة تحت البرانس البيضاء. وما إن وصلوا إلى الخيمة الكبيرة في وسط الواحة حتى أخرجوا السيوف الحدباء[1] والبنادق ليهاجموا خيمة فارغة.

وفي الحال حاصرهم رجال الواحة داخل الخيمة وخلال نصف ساعة كان هناك أربعمئة وتسع وتسعون جثة مبعثرة على الأرض. لم يكن في الواحة أطفال ولا نساء.. فالأطفال أُخذوا إلى الطرف الآخر من بستان النخيل..

والنسوة كنَّ تصلين لأزواجهن تحت الخيام.. فلم ترين شيئاً. كانت الواحة تبدو كأنها في يوم طبيعي لولا وجود الجثث في كل مكان.

١- سيف شرقي عريض ومعقوف أصلاً.

لم ينجو من فرسان الصحراء سوى فارس واحد هو قائد مجموعة المهاجمين.

في المساء اقتيد إلى شيوخ القبائل الذين سألوه عن سبب تعدّيه على حرمة التقاليد.. فأجابهم بأن رجاله كانوا جياعاً وعطاشاً.. وكاد إنهاك أيام عديدة من القتال يقضي عليهم، لذلك قرروا احتلال الواحة كي يستطيعوا متابعة القتال.

تأسف شيخ الواحة الأكبر لحال هؤلاء المحاربين.. ثم قال للقائد: إن احترام التقاليد فوق كل شيء.. وإنه على الواحة أن تبقى آمنة لا يتغيّر فيها شيء سوى الكثبان التي تحركها الرياح.

ثم حكم على رئيس الخصم بالموت المذل وذلك بشنقه في جذع نخلة يابسة وبقاء جثته عليها متأرجحة في مهب ريح الصحراء، بدل أن يُقتل بشرف بالسلاح الأبيض أو بطلقة بندقية..

استدعى شيخ القبيلة الشاب الأجنبي وأعطاه ٥٠ قطعة ذهبية.. ثم ذكر من جديد قصة يوسف في مصر.. وطلب من الشاب أن يكون منذ ذلك الحين مستشار الواحة.

غابت الشمس وراء الأفق وظهرت أولى النجمات في السماء..(لكنها لم تكن تلمع كثيراً بسبب ضياء البدر الوليد). في تلك الساعة اتجه الشاب نحو الجنوب.. ووصل إلى مكان ليس فيه سوى خيمة واحدة ـ وقد قيل فيما مضى إن هذا المكان مسكون بالجن ـ لكن الشاب لم يأبه لذلك، بل جلس وانتظر طويلاً وأخير ظهر الخيميائي.. عندما أصبح القمر في قبة السماء وكان يحمل على كتفه باشقين ميتين..

ـ "ها أنا ذا" قال الشاب.

ـ "لكن عليك ألا تكون هنا.. أجابه الخيميائي. وهل كانت أسطورتك الذاتية تريدك في هذا المكان؟"

ـ "هناك حرب بين القبائل وليس بالإمكان اجتياز الصحراء."

ترجَّل الخيميائي عن حصانه ـ وأشار للشاب أن يدخل معه. كانت الخيمة مثل غيرها من خيام الواحة باستثناء الخيمة المركزية الكبيرة التي تثير فخامتها حكايات خرافية.. لم يكن في هذه الخيمة لا آلات ولا أفران

للخيمياء.. ليس فيها سوى أكداس كتب وموقد للطبخ.. وسجاد مزركش برسوم غامضة.

ـ "اجلس، قال الخيميائي. سأحضر الشاي.. وسنأكل سويةً هذين الباشقين.."

تساءل الشاب إن كان هذان الطائران هما ذاتهما اللذان رآهما وقرأ طيرانهما لكنه كتم السؤال في أعماقه ولم يقل شيئاً.. بل أخذ يتلذذ برائحة اللحم الشهية والتي تبدو الآن أجمل من رائحة عطر الأراكيل.

ـ "لماذا طلبت رؤيتي؟" سأل الشاب.

ـ "بسبب الإشارات، أجابه الخيميائي. إن الريح أخبرتني بقدومك وبحاجتك لمساعدتي.."

ـ "لا لست أنا.. بل الأجنبي الآخر.. إنه الإنكليزي مَن يبحث عنك."

ـ "عليه أن يجد أشياء أُخرى قبل أن يجدني.. لكنه على الطريق الصحيح، فقد بدأ ينظر إلى الصحراء.."

ـ "وأنا؟" سأل الشاب متلهفاً..

ـ "عندما نريد شيئاً فعلاً.. فإن الكون بأسره يتعاضد ليتيح لنا تحقيق رغبتنا" قال الخيميائي مردداً كلمات الملك العجوز.

أدرك الشاب ما يحدث ـ فها هو رجل آخر في طريقه ليقوده إلى أسطورته الذاتية..

ـ "إذا ستعلمني..؟"

ـ "كلا ، فأنت تعرف أصلاً كل ما يجب معرفته. وليس عليَّ سوى أن أضعك على الطريق باتجاه كنزك.."

ـ "لكن هناك حرب بين القبائل" كرر الشاب.

ـ "إني أعرف الصحراء" قال الخيميائي.

ـ "لقد وجدت كنزي: لدي جمل. ونقود دكان الكريستال.. وخمسون قطعة ذهبية.. وبإمكاني أن أكون رجلاً غنياً في بلدي."

ـ "لكن لا شيء من كل هذا يوجد بجانب الأهرامات."

ـ "لدي فاطمة وهي الكنز الأكبر من بين كل ما كسبته.."

ـ "هي أيضاً ليست بجانب الأهرامات.."

توقف حديثهما هنا.. وبدأا بتناول الباشقين بصمت.. ثم فتح الخيميائي قنينة وسكب في كأس ضيفه سائلاً أحمر.. إنه خمر من ألذ وأفضل ما شرب في حياته –"لكن الخمر محرمٌ" قال الشاب مستغرباً، فأجابه الخيميائي..

ـ "ليس الشر فيما يدخل في أفواهنا.. بل فيما يخرج منها.."

شرب الشاب.. وفي الحال شعر أن كل شيء على ما يرام باستثناء أن الخيميائي كان يخيفه قليلاً.. وعندما أنهيا طعامهما ذهبا وجلسا خارج الخيمة.. وأخذا يتأملان سناء القمر الذي أبهت النجوم.

ـ "اشرب واستمتع ببعض الوقت، قال الخيميائي ملاحظاً نشوة الشاب التي بدأت تزداد قليلاً قليلاً. استرح كما يستريح المحارب قبل المعركة.. لكن لا تنسَ أن قلبك هناك حيث كنزك.. وأن الكنز موجود حتماً.. فهذا يُعطي لكل ما اكتشفته في طريقك معنى..

في الغد، بع جملك واشتري حصاناً.. فالجمال غدارة تقوم بأفضل الخطوات دون أن تدعك تلاحظ أي شيء يدل على تعبها.. وفجأة تسقط على ركبها ميتةً.. أمَّا الخيول

فتتعب ببطء.. لذلك يمكنك دائماً أن تعرف كم تتحمَّل.. ومتى ستموت.."

في مساء اليوم التالي وصل الشاب أمام خيمة الخيميائي ممتطياً جواداً.. وانتظر قليلاً قبل أن يظهر هذا الأخير على حصانه والصقر يحط على كتفه الأيسر بعنفوان.. قال الخيميائي:

ـ "أظهر لي الحياة في الصحراء.. فوحدهم من يجدون الحياة فيها يمكنكم اكتشاف كنوزها.."

تقدما في الصحراء وضوء القمر يغمرهما.. فكّر الشاب بقلق:

ـ "لا أعرف إن كنت سأنجح بإيجاد الحياة هنا.. فما زلت لا أعرف الصحراء."

تمنَّى لو يستطيع أن يقول للخيميائي هذا لكن الخوف منعه فلاذ بالصمت وتابعا مسيرهما ــ إلى أن وصلا إلى مكان كثير الحصى حيث كان الشاب قد رأى الباشقين سابقاً.. لكنه اليوم يبدو مختلفاً ـ وليس فيه سوى الصمت والريح. فالتفت الشاب إلى الخيميائي وقال:

- "لا يمكنني التعرف على الحياة في الصحراء.. أعرف أنها موجودة لكنني لا استطيع التوصل إليها.."

- "الحياة تجذب الحياة.." أجاب الخيميائي بهدوء.

فهم الشاب مقصد الخيميائي.. وأطلق في الحال العنان لحصانه الذي شق الطريق بحوافره وسط الحجارة والرمال. وبقي الحصان يعدو هكذا لمدّة نصف ساعة.. وغابت نخلات الواحة عن مرمى النظر.. ولم يعد هناك سوى ضياء السماء الرائع والصخور التي جعلها هذا الضياء تلمع كالفضة.

فجأة توقف حصان الشاب في مكان لم يكن قد رآه الشاب من قبل فقال للخيميائي: - "هنا تكمن حياة.. أنا لا أعرف لغة الصحراء - لكن حصاني يعرف لغة الحياة."

لم يقل الخيميائي شيئاً، بل أخذ ينظر إلى الحجارة وهو يتقدم ببطء بعد أن ترجلا عن جواديهما. ثم توقف فجأة وانحنى بحذر شديد جداً ودسَّ يده في حفرة بين الحجارة. ثم أدخل الذراع كلها تحت الإبط.. هناك شيء ما يتحرك.. وعينا الخيميائي (لم يستطع أن يرى إلاّ عيناه) تشهد بتجعّدها على الجهد الذي كان يبذله للإمساك بذلك الشيء وبدت الذراع وكأنها تتصارع معه في داخل الحفرة.

وبقفزة أرعبت الشاب سحب الخيميائي ذراعه وانتصب واقفاً في الحال. فإذا بها تمسك أفعة ضخمة من ذيلها.

قفز الشاب للوراء من شدة الذعر ـ كانت الأفعى تتخبط بحدّة مع ضجيج وفحيح ملأ صمت الصحراء. إنها كوبرا وبإمكان سمها أن يقتل رجل في بضع دقائق.

ـ "احترس من السم." أراد الشاب أن يقول للخيميائي، لكن على الأغلب قد فات الأوان فهذا الأخير كان قد وضع يده في الحفرة ومن الوارد جداً أن يكون قد لُسع فعلاً.. لكن سحنته صافية تماماً ولا يبدو عليه المرض نهائياً.. "إن عمر الخيميائي مئتي عام" هذا ما كان الإنكليزي قد قاله. إذاً هو يعرف بالخبرة الطويلة كيف يتصرف مع أفاعي الصحراء.

عاد الخيميائي إلى حصانه وأخذ سيفه الطويل الأحدب.. ثم رسم به على الأرض إطاراً ووضع الأفعى داخله فجمدت في الحال وتوقفت عن الحركة.

ـ "لا تقلق، قال الخيميائي. لن تخرج من هنا أبداً.. لقد اكتشفت الحياة في الصحراء وهي العلامة التي أحتاجها.."

ـ "لماذا هذا مهم جداً؟"

- "لأن الأهرام وسط الصحراء.."

لم يكن الشاب يرغب بسماع شيء عن الأهرام.. كان قلبه كئيباً حزيناً منذ مساء أمس.. فسعيه وراء الكنز أصبح معناه الابتعاد عن فاطمة.

- "سأعلّمك كيف تجتاز الصحراء" قال له الخيميائي آنذاك.

- "لكني أريد البقاء في الواحة. لقد التقيت بفاطمة وهي أغلى عندي من الكنز.."

- "فاطمة ابنة الصحراء.. وهي تعلم أنه على الرجال أن يرحلوا كي يستطيعوا العودة. لقد وجدت كنزها.. وهو أنت - وهي الآن تنتظر منك أن تجد ما تبحث عنه."

- "وإذا قررت البقاء."

- "ستصبح مستشار الواحة. وستشتري بما لديك من مال عدد لا بأس به من الخراف والجمال.. وستتزوج فاطمة وتعيش سعيداً خلال السنة الأولى. ثم ستتعلم كيف تُحب الصحراء.. وستتعرف على الخمسة آلاف نخلة واحدةً واحدة.. وسترى كيف يتعانقون مع بعضهم البعض.. إن هذه النخلات ستجعلك ترى عالم لا يتوقف عن التغيير. وهكذا ستصبح

ضليعاً في فك الرموز وتحليل الإشارات.. فالصحراء هي المعلم الأعظم.."

في السنة الثانية.. ستتذكر كنزك.. وستبدأ الإشارات بذكره لك بإلحاح.. وستحاول ألاّ تعير ذلك اهتماماً.. بل ستصبُّ كل جهدك ومعرفتك في سبيل مصلحة الواحة وسكانها وهكذا سيرضى عنك شيوخ القبائل.. وفي ذات الوقت ستجلب لك جمالك الغنى والسلطة..

وفي السنة الثالثة ستستمر الإشارات في الكلام عن الكنز، وعن أسطورتك الذاتية. وستمضي ليالٍ وليالٍ في الواحة.. وستصبح فاطمة امرأة حزينة لأن مسيرتك قد انقطعت بسببها.

لكنك ستستمر بحبها.. وسيكون هذا الحب مُتبادل. وستتذكر أنها لم تطلب منك البقاء يوماً، لأن امرأة الصحراء معتادة على انتظار رجلها، إذاً أنت لن تجبرها على ذلك..

وهكذا ستسير ليالٍ طويلة في رمال الصحراء.. وسط النخيل مفكراً بإمكانية متابعة الطريق. معتمداً في ذلك

على حبك لفاطمة. فما جعلك تبقى في الواحة هو فقط خوفك من ألاّ تعود أبداً..

وعندما تصل إلى هذه المرحلة ستقول لك الإشارات أن كنزك قد دُفن تحت الأرض ولن يخرج منها أبداً.

وفي السنة الرابعة ستهجرك الإشارات لأنك لم تصغ إليها أبداً..

وسيدرك شيوخ القبائل ذلك ويجردونك من منصبك كمستشار فتصبح تاجراً غنياً يملك الكثير من الجمال والبضائع الوافرة. لكنك ستُمضي ما تبقى من حياتك تائهاً وسط النخيل في الصحراء. وأنت على يقين بأنك لن تكمل أسطورتك الذاتية.. وأنه من الآن فصاعداً أصبح من الصعب جداً القيام بذلك.

.. يجب أن تعلم أن الحب لا يمنع الإنسان ولا في أي حال من الأحوال من متابعة أسطورته الذاتية.. فإذا حدث ومنعه، فإنه ليس حباً حقيقياً بل لغة كونية."

محى الخيميائي الإطار الذي رسمه على الرمل، فقفزت الكوبرا مسرعة لتختفي من جديد بين الحجارة.

تـذكـر الـشـاب تـاجر الـكريـستالات الـذي أراد دائمـاً الـذهاب إلى مكـة.. والإنكليـزي الـذي كـان يبحـث عـن الخيميـائي.. كـان سـارحاً في المـرأة الـتي وثقـت بالـصحراء فحملت إليها مَن كانت تتمنى أن تحبه..

امتطيـا جواديهمـا وتابعـا المـسير، وفي هـذه المـرّة كـان الـشاب هـو مَـن تبـع الخيميـائي.. هبـت الـريح حاملـةً ضوضـاء الواحـة.. فحـاول الـشاب أن يميّـز صـوت فاطمـة فـاليوم لم يذهب إلى البئر ليراها بسبب المعارك.

لكـن عنـدما كانـا ينظـران إلى الأفعـى داخـل الإطـار، حدّثـه الفـارس الغريـب ذو الـصقر علـى كتفـه، عـن الحـب والكنوز.. وعن نساء الصحراء وأسطورته الذاتية..

ـ "سـأذهب معـك" قـال الـشاب.. وفي الحـال شـعر بـسلام يستقرُّ في قلبه.

ـ "سننطلق غداً قبل طلوع الشمس"

كان هذا جواب الخيميائي الوحيد.

في تلك الليلة لم يستطع الشاب أن ينام.. فقام قبل الفجـر بـساعتين وأيقـظ أحـد الـصبية الـذين كـانوا ينـامون معـه في نفس الخيمة وطلـب منـه أن يدلـه علـى مكـان إقامـة فاطمـة..

مقبل إعطائه ما يشتري به نعجة.. فوافق الصبي وسارا معاً إلى هناك.. وحين وصلا رجاه الشاب أن يذهب ليوقظها ويخبرها بأنه ينتظرها في الخارج.. وحين أنجز الفتى مهمته وأخذ ثمن نعجة أخرى.. قال له الشاب: ـ "اتركنا لوحدنا الآن" فعاد هذا إلى خيمته ليتابع نومه فخوراً بمساعدته لمستشار الواحة.. ومسروراً لأنه أصبح يملك ما يساعده على شراء خراف.

جاءت فاطمة إليه.. وسارا معاً بين النخيل.. كان يعرف أن هذا عكس التقاليد.. لكن الآن لم يعد لهذا أية أهمية.

ـ "سأغادر.. لكنني سأعود.. فاطمة أنا أحبك.. أحبك لأن.."

ـ "لا تقل شيئاً، قاطعته فاطمة. نحب لأننا نحب.. فما من سبب للحب.."

لكنه استأنف كلامه: ـ "أحبك لأنني حلمت.. ثم التقيت بملك ـ وبعت الكريستالات ـ واجتزت الصحراء.. ثم اشتعلت الحرب بين القبائل وذهبت إلى البئر لأعرف أين يسكن الخيميائي.. أحبك لأن كل الكون اتفق ليجعلني أصل إليكِ.."

اقتربت فاطمة منه وتعانقا بقوة وحرارة.. فأحس بجسدها للمرّة الأولى يلامس جسده.

ـ "سأعود.." قال الشاب مجدداً.

ـ "عندما كنت أنظر إلى الصحراء سابقاً كان لدي رغبة وأمنية.. والآن سأنظر إليها لأرى الأمل. لقد غادر أبي ذات يوم، لكنه عاد فيما بعد إلى أمي.. وما زال يعود إلينا دائماً."

توقف الحديث هنا.. وتابعا المشي وسط النخيل بشرود.. وعندما وصلا إلى باب خيمتها قال لها: ـ "سأعود كما عاد أبوك إلى أمك." فاغرورقت عيناها بالدموع.. "أتبكين؟!"

ـ "إني امرأة صحراء ـ لكنني قبل كل شيء امرأة" أجابت وهي تُخفي وجهها.

عادت فاطمة إلى خيمتها.. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت أشعة الشمس الأولى ـ مع ولادة النهار ستخرج لتقوم بما اعتادت فعله منذ سنتين لكن كل شيء قد تغير الآن ـ فالفتى لم يعد في الواحة.. ولهذا ستفقد هذه الأخيرة المعنى الذي كانت تحمله حتى وقت قريب جداً.. ومنذ اليوم لن يعود هذا المكان ذو الخمسة آلاف نخلة والثلاثين بئراً..

والذي يُسرُّ الحجاج بالوصول إليه بعد سفر طويل هو ذاته.. منذ اليوم ستصبح الواحة بالنسبة لها مكاناً فارغاً.

وستصبح الصحراء أهمَّ لديها.. وستمضي وقتها بالنظر إليها متسائلة عن النجم الذي يستدل به حبيبها في بحثه عن الكنز وستحمل الصحراء قبلاتها له آملةً أن تلمس وجهه وتخبره بأنها حيَّة وتنتظر عودته، مثل امرأة تنتظر رجلها الجسور الذي يتابع طريقه سعياً وراء الأحلام والكنوز.

ابتداءً من هذا اليوم لن تكون الصحراء إلا شيئاً واحداً: الأمل بعودته

ـ "لا تفكر بما تركت وراءك..، قال الخيميائي عندما بدءا بالسير على خيولهم في رمال الصحراء. فكل شيء مكتوب في النفس الكلية وسيبقى فيها إلى الأبد."

ـ "يحلم الناس بالعودة أكثر مما يحلمون بالرحيل." قال الشاب الذي اعتاد من جديد على صمت الصحراء.

ـ "إذا كان ما وجدته قد صُنع من مادة صافية، فإن ذلك لن يفسد أبداً، وسيمكنك العودة إليه ذات يوم. أمّا إذا كان هذا مجرّد لحظة وميض، مثل انفجار نجم في السماء.

فإنك لن تجد شيئاً عند عودتك. لكن على الأقل ستكون قد رأيت انفجار الوميض. وهذا شيء يستحق عناء العيش."

كان الرجل يتحدث بلغة الخيمياء.. لكن الشاب فهم أنه يلمح إلى فاطمة.

من الصعب ألاّ نفكر بمن تركنا وراءنا.. فالصحراء بمناظرها الرتيبة لا تتوقف عن الامتلاء بالأحلام.. كان الشاب لا يزال يرى النخلات والآبار ومُحيّا محبوبته.. كان يرى الإنكليزي ومختبره والجمّال الذي كان معلّماً دون أن يعرف ذلك عن نفسه –"ربما لم يجرّب الخيميائي الحب أبداً" فكّر.

تقدّمه الخيميائي ببعض المسافة والصقر على كتفه. كان هذا الصقر يعرف لغة الصحراء تماماً.. وكان يترك كتف صاحبه كلما توقف المسافران للاستراحة ويحلّق بعيداً ليبحث عن الغذاء..

في اليوم الأول أحضر أرنباً برياً.. وفي اليوم التالي طائران.

أمّا المسافران فكانا يفرشان أغطيتهما على الأرض عند المساء ويجلسان.. لكن دون أن يشعلا النار. كانت

ليالي الصحراء باردة مظلمة وتشتدُّ ظلمةً كلما ابتعد القمر عن قبة السماء. هكذا كان حالهما في المساء.. أمَّا في النهار فقد كانا يسيران بصمت.. وإذا تكلما يكون حديثهما عن الاحتياطات التي أصبح لزاماً عليهما اتخاذها كي يتجنبا الوقوع في المعارك وعلى هذا الحال مرَّ أسبوع.

كانت الحرب بين القبائل مستمرة.. وفي بعض الأحيان كانت الريح تحمل لهم رائحة الدم العُذيبية[1] فيعرفان أن معركة قد وقعت على بُعد قريب منهم..

إنها الريح.. دائماً تذكره بوجود لغة الإشارات المستعدة لإظهار ما لا تستطيع عيناه رؤيته.

في مساء اليوم السابع من السفر، قرر الخيميائي أن يخيّم في العراء أبكر من الوقت المعتاد.. وانطلق الصقر ليسعى وراء طريدة.. وبعد أن جلسا ووضعا أمتعتهما، قدّم الخيميائي مطرة الماء للشاب قائلاً: ـ "ها قد بلغت نهاية سفرك تقريباً، لقد تابعت أسطورتك الذاتية، فهنيئاً لك."

١- حلو قليلاً.

- "لكنك لم تقل لي شيئاً ، كنت أعتقد أنك ستعلمني ما تعرفه. لقد كنت في الصحراء مع رجل يملك كتب في الخيمياء. لكنني لم أستطع أن أتعلم شيئاً منها."

- "ليس هناك سوى طريقة واحدة للتعلُّم وهي العمل أجاب الخيميائي كل ما كنت تحتاج لمعرفته هو السفر الذي تعلّمته.. ولا ينقصك الآن إلاّ شيء، واحد.."

أراد الشاب أن يعرف ما هو هذا الشيء، لكن الخيميائي أبقى عيناه شاردتان في الأفق، مترقباً عودة الصقر.

- "لماذا يسمونك الخيميائي؟"

- "لأنني أكونه."

- "وما هو خطأ الخيميائيين الآخرين الذين يبحثون عن الذهب ويفشلون؟"

- "خطؤهم يكمن في اكتفائهم بالبحث عن الذهب.. إنهم يبحثون عن الكنز في أسطورتهم الذاتية ، دون أن يرغبوا بعيش الأسطورة بحد ذاتها."

- "ما الذي ما زال ينقصني معرفته؟" أصرَّ الشاب..

لكن الخيميائي استمرَّ في تعليق نظره على الأفق ولم يجب .. وبعد مرور بعض الوقت، عاد الصقر مع فريسته. فحفروا حفرة وأشعلوا النار في داخلها كي لا يرى أحد اللهب من بعيد.

ـ "أنا خيميائي لأنني خيميائي، قال بينما كانا يحضران الطعام. لقد ورثت هذا العلم عن أجدادي.. الذين تعلموه بدورهم من أجدادهم، وهكذا منذ أن خُلق الكون. في ذلك الوقت كان علم الإنجاز العظيم يمكن أن يدوَّن على زمرّدة بسيطة لكن الناس لا يعيرون الأشياء البسيطة اهتماماً. لذلك بدؤوا يكتبون مؤلفات وشروح ودراسات فلسفية. وأخذوا يدّعون بأنهم يعرفون الطريق أكثر من غيرهم."

ـ "ما الذي كُتب على اللوح الزمردي؟" سأل الشاب.

أخذ الخيميائي يرسم على الرمل.. لمدّة خمس دقائق ليس أكثر.. وبينما كان يرسم تذكر الشاب الملك العجوز والساحة التي التقيا فيها ذات يوم. وبدى له ذلك وكأنه منذ سنين وسنين.

ـ "هـذا مـا خُـطَّ علـى اللـوح الزمـردي" قـال الخيميـائي عندما انتهى. فـاقترب الـشاب وقـرأ الـكلمـات المكتوبـة علـى الرمل.

ـ "إنهـا رمـوز، قـال الـشاب وقـد خـاب ظنـه نوعـاً مـا في اللــوح الزمــردي. وهــي تقــول مــا كــان في كتــب ذلــك الإنكليزي."

ـ "لا، أجـاب الخيميـائي. إنهـا كطيران البواشـق: يجـب ألا تُفهم لسبب واحد هو أن اللـوح الزمـردي معبر مباشـر نحـو النفس الكلية..

إن الحكماء يدركون أن هذا العـالم لـيس سـوى صـورة ونـسخة عــن الجنــة. وأن الفائــدة الوحيــدة مــن وجــوده هــو التأكيد على وجود عالم أكثر كمالاً منه.

لقـد خلقـه اللّه كـي يـستطيع الإنـسان أن يفهـم بواسـطة الأشياء المرئية تعليماته الروحانية ومعجزة حكمتـه.. هـذا مـا أدعوه بالعمل."

ـ "هل يجب عليَّ أن أفهم اللوح الزمردي؟" سأل الشاب.

ـ "ربمـا لـو كُنـتَ في مختـبر خيميـائي.. لكـان الوقـت جيداً لدراسة أفضل طريقة لفهم اللوح الزمردي.. لكنك الآن

في الصحراء. لذلك من الحري بك أن تتوغَّل في أعماق الصحراء. إن هذا يفيد في فهم العالم مثل أي شيء آخر على الأرض. حتَّى أنك لست بحاجة إلى فهم الصحراء. يكفي أن تتأمّل حبة رمل عادية.. لترى فيها كل معجزات الخلق."

- "وماذا عليَّ أن أفعل كي أتوغّل في أعماق الصحراء؟"

- "اصغ لقلبك، إنه يعرف كل شيء.. لأنه آت من النفس الكلية، وإليها سيعود ذات يوم."

تابعا مسيرهما بصمت ومرَّ نهاران آخران.. كان الخيميائي متيقظاً جداً فقد كانوا يقتربون من منطقة المعارك الأكثر عنفاً.. وكان الشاب يبذل جهده في سماع قلبه. كان قلباً صعب الفَهم.. فسابقاً كان مستعداً للرحيل دائماً، أمّا الآن فكل ما يريده هو الوصول وبأي ثمن..

أحياناً، كان قلبه يمضي ساعات وهو يروي له حكايات مليئة بالحنين وفي أوقات أخرى كان يتأثر بشروق الشمس في الصحراء.. ويجعله (أي الشاب) يذرف الدموع الخفيفة.. وحين يحدّثه عن الكنز كان ينبض بسرعة كبيرة.. ثم يعود فيتباطأ عندما تتوه عينا الشاب في أفق الصحراء اللامتناهي.. وهكذا كان دائماً يتحدث.. لا

يصمت أبداً.. حتى ولو لم يتبادل الشاب كلمة واحدة مع الخيميائي.

ـ "لماذا علينا الاستماع لقلوبنا؟" سأل ذات مساء عندما كانا يستريحان.

ـ "لأنه هناك.. حين سيكون قلبك.. سيكون كنزك.."

ـ "قلبي ثائر.. مضطرب.. يحلم ويقلق.. إنه قلب عاشق لفتاة من الصحراء. ولطالما سألني عن أشياء وجعلني أمضي ليالٍ بطولها دون نوم عندما أفكر فيها."

ـ "هذا جيد.. فقلبك حي إذاً.. استمر في سماع ما يقوله لك.."

مرّت ثلاثة أيام أخرى قابلوا خلالها عدّة محاربين ورؤوا آخرين في الأفق. وبدأ قلب الشاب يحدّثه عن الخوف. كان يروي له القصص التي يعرفها عن النفس الكلية.. وعن رجال خرجوا ليبحثوا عن كنوزهم ولم يجدوها أبداً. لقد كان يرعبه أحياناً بفكرة أنه لن يستطيع الوصول إلى كنزه.. أو أن يموت في الصحراء. لكنه كان يقول له في المقابل إنه راضٍ جداً فقد التقى بحبه وكسب الكثير من القطع الذهبية.

ـ "قلبي خائن..، قال الشاب للخيميائي عندما توقفا ليرتاح الجوادان قليلاً. إنه يحثني على عدم متبعة الطريق.."

ـ "هذا جيد، أجاب الخيميائي. فهذا دليل على أن قلبك مفعم بالحياة ومن الطبيعي أن يخاف من مقايضة كل ما كسبته بحلم.."

ـ "إذاً، لماذا يجب أن أستمع لقلبي.؟"

ـ "لأنك لن تتوصل إلى إسكاته. وحتى لو تظاهرت بعدم سماع ما يقوله لك.. فإنه سيكون هناك في صدرك ولن يتوقف عن تكرار ما يؤمن به بالنسبة للحياة والعالم."

ـ "حتى ولو كان غداراً؟!"

ـ "الغدر هو الضربة التي لا تتوقعها. فإذا كنت تعرف قلبك جيداً.. فإنه لن يُفاجئك أبداً. لأنك تعرف أحلامه ورغباته. وبالتالي تعرف كيف تحترس منها.

لا يُمكن لأحد أن يهرب من قلبه.. لهذا السبب من الأفضل لك أن تستمع لما يقوله. كي لا يأتيك منه ضربة لم تكن تتوقعها."

استمرَّ الشاب في الإصغاء إلى قلبه، وخلال مسيرهما في الصحراء توصّل إلى معرفة خدعه ومناوراته.. وانتهى به الأمر

إلى قبوله كما هو. آنذاك توقف عن الخوف وعن الرغبة بالعودة أدراجه. لأنه في أحد الأمسيات قال له قلبه بأنه مسرور.

- "حتى ولو اشتكيت قليلاً يقول. فهذا فقط لأنني قلب رجل، وقلوب الرجال هكذا تكون..: تخاف من تحقيق أكبر أحلامها وذلك لاعتقادهم بأنهم لا يستحقون الوصول إليها.. أو لا يستطيعون بلوغها. نحن القلوب نموت خوفاً لمجرّد فكرة المحب المختفي إلى الأبد، واللحظات التي كان من الممكن أن تكون رائعة ولكنها للأسف لم تكن.. إننا نخاف من فكرة الكنوز التي كان يُمكن أن نكتشف ولكنها بقيت دفينة الرمال للأبد.. لأنه إذا حصل ما نخشاه نتعذب بشكل مرعب حتى النهاية."

- "قلبي يخاف المعاناة، قال الشاب للخيميائي في إحدى الليالي وهما ينظران إلى السماء دون قمر."

- "قل له إن الخوف من المعاناة أسوأ من المعاناة ذاتها.. وإنه ليس هناك قلب لم يعانِ عندما كان يسعى وراء أحلامه، لأن كل لحظة من السعي هي لحظة من اللقاء مع الله ومع الخلود."

ـ "كل لحظة من السعي هي لحظة من اللقاء، قال الشاب لقلبه. حين كنت أبحث عن كنزي.. كانت الأيام كلها برّاقة ساطعة مشرقة. لأنني كنت أعرف أن كل ساعة تشكل جزءاً من الحلم بإيجاده.. لقد اكتشفت في بحثي عن الكنز ـ طريقاً يوصل إلى الأشياء التي لم أكن لألتقيها لولا شجاعتي وإقدامي على تجربة الأشياء المستحيلة على الرعاة."

ظل قلبه في سلام طيلة فترة بعد الظهر.. ونام في تلك الليلة بهدوء.. وعندما استيقظ بدء قلبه يروي له أشياء عن النفس الكلية..:

قال له إن كل رجل سعيد هو رجل يحمل الله في داخله. وأن السعادة يمكن أن توجد في حبة رمل عادية من الصحراء، كما كان قد قال له الخيميائي فحبة الرمل هي لحظة خلق.. وقد استغرق الكون ملايين السنين في خلقها

ـ "كل إنسان على الأرض لديه كنز ينتظره، قال له قلبه. لكننا، نحن القلوب، نادراً ما نحدّثه عنه. فالناس في هذه الأيام لم يعودوا يريدون إيجاد هذه الكنوز. نحن لا نتحدث عنها إلاّ للأطفال الصغار.. ومن ثم نترك الحياة

تتكفل بقيادة كل شخص نحو قدره. للأسف الأشخاص الذين يتبعون الطريق المرسوم لهم.. والذي هو طريق الأسطورة الذاتية والنعيم قلائل جداً. فمعظم الناس يرون العالم نذير خطر ولهذا السبب ذاته يصبح العالم كما يرونه.. وهكذا يوماً بعد يوم يخفت صوتنا.. لكننا لا نسكت أبداً. مع أننا ننذر نذوراً كي لا يُسمع كلامنا.. فنحن لا نريد أن يعاني الناس لأنهم لم يتبعوا الطريق الذي أرشدناهم إليها."

ـ "لماذا لا تقول القلوب للناس بأن عليهم اتباع أحلامهم؟" سأل الشاب الخيميائي.

ـ "لأنه في هذه الحالة تزداد معاناة القلوب، والقلوب بطبعها لا تحب أن تعاني.."

في ذلك اليوم.. توصّل الشاب إلى فهم قلبه وطلب منه ألاّ يتركه أبداً. بل على العكس، رجاه أن ينقبض في صدره عندما يصبح بعيداً عن أحلامه، وأن يعطيه علامة الخطر ليأخذ حذره وأقسم الشاب على ذلك.

في تلك الليلة حدَّث الشاب الخيميائي عن كل هذه المواضيع. فأدرك هذا الأخير أن قلب الشاب عاد إلى النفس الكلية.

- "ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟" سأل الشاب.

- "استمر في السير باتجاه الأهرام، قال الخيميائي. وابق منتبهاً للإشارات، فقلبك الآن قادر على إرشادك إلى الكنز."

- "إذاً هذا ما كانت تنقصني معرفته.."

- "لا، الشيء الذي ما زال ينقصك أن تعرفه، قال الخيميائي، هو هذا: قبل تحقيق أي حلم، تريد النفس الكلية أن تقيّم كل ما اكتُسب خلال المسيرة. وتصرفها هذا ليس بدافع الخبث أو سوء النية اتجاهنا بل هو دافع كي نستطيع أن نكتسب في نفس وقت سعينا للحلم دروساً نتعلمها في مسيرنا إليه. وهذه هي اللحظة التي يتراجع فيها معظم الناس إنه ما ندعوه بلغة الصحراء: الموت عطشاً بينما تلوح نخلات الواحة في الأفق.

إن السعي يبدأ دائماً بحظ المبتدئ.. وينتهي بامتحان المنتصر.."

تــذكَّر الــشاب مثــل قــديم في بلــده يقــول إن الــساعة الأكثر ظُلمة هي تلك التي تأتي قبل شروق الشمس مباشرة.

بدأت الإشارات تتحدث عن الخطر.. فمنذ اليوم التالي ظهرت أول إشارة ملموسة له..

فيما هم سائرون صادفوا

محاربين بادروهم بالسؤال وهم يقتربون

ـ "مــاذا تفعــلان هنــا.. في هــذا المكــان؟" فأجــابهم الخيميائي:

ـ "جئت أصطاد مع صقري.."

ـ "حسناً.. سنفتشكم إذاً لنرى إن كان بحوزتكم أسلحة." قال أحد المحاربين ونفذ آخر في الحال.

نـزل الخيميـائي عـن حصانه بكـل هـدوء.. وفعـل رفيقـه مثله.

ـ "لماذا هـذا المال الكثير؟" سـأل المحارب عنـدما رأى كيس نقود الشاب

ـ "للذهاب إلى مصر.." أجاب الشاب بسرعة.

أمَّا في كيس الخيميائي فقد وجدوا قنينة كريستال صغيرة مليئة بسائل وبيضة من الزجاج. ذات لون أصفر أكبر بقليل من بيضة الدجاج.

- "ما هذا؟" سأل المحارب

- "حجر الفلاسفة، وإكسير الحياة المديدة. إنه الإنجاز العظيم للخيميائيين. مَن يشرب من هذا الإكسير يبتعد المرض عنه إلى الأبد. وكسرة صغيرة من هذا الحجر كافية لتحويل أي معدن إلى ذهب."

ما إن سمع المحاربون هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين.. وضحك الخيميائي معهم.. كان جوابه سخيف جداً بالنسبة لهم لذلك تركوهم يرحلون مع كل ما يملكون بسلام.

- "أجُننت؟! سأل الشاب بعد أن قطعا بعض المسافة. كيف تقول لهم هذا؟"

- "أردت أن أظهر لك قانون العالم. إنه بسيط جداً: عندما نملك كنوزاً كبيرة تحت أنظارنا، لا نلحظ وجودها أبداً. أتعرف لماذا؟ لأن الناس لا يؤمنون بوجود الكنوز."

تابعا المسير وبمرور الأيام ـ كان قلب الشاب يزداد هدوءاً لم يعد يضطرب لأشياء من الماضي أو المستقبل.. واكتفى بتأمُّل الصحراء والارتواء من النفس الكلية مع الشاب. لقد أصبح بينهما صداقة عظيمة لا يمكن معها من الآن فصاعداً أن يخون أحدهما الآخر.

كان القلب يتحدث لتقوية وتشجيع الشاب وكان هذا بدوره يجد في بعض الأحيان الأيام الطويلة من الصمت مضجرةً بشكل مرعب..

وفي أحد الأيام حدّثه قلبه للمرّة الأولى عن صفاته العظيمة:

الشجاعة التي ساعدته على هجران نعاجه. والسعي وراء أسطورته الذاتية.. والحماس الذي أثبت فعاليته في دكان الزجاجيات.. وقال له أشياء أخرى لم يكن الشاب قد لاحظها أبداً وهي: المخاطر التي اقترب منها ولم ينتبه لها.

فذات مرّة مثلاً أخفى المسدس الذي اختلسه من أبيه.. ومع هذا المسدس كان فعلاً في خطر وذكّره بيوم كان قد مرض فيه وسط البرية. في ذلك اليوم تقيأ كثيراً ثم نام منهكاً لوقت طويل.. لقد أنقذ هذا المرض حياته.. فقد كان

هناك قاطعا طريق على بعض المسافة يتربصان به.. وقد عزما على سرقة خرافه وقتله في ذلك اليوم.. لكن مرضه أخّره.. فانتهى بهما الأمر إلى ترك المكان معتقدان بأنّه قد غيّر طريق سيره.

ـ "وهل تساعد القلوب الناس دائماً؟" سأل الشاب الخيميائي.

ـ "فقط مَن يعيشون أساطيرهم الذاتية. إضافة إلى الأطفال والسكيرين والعجائز.."

ـ "هذا يعني أنه ما من خطر.."

ـ "بل يعني.. وبكل بساطة أن القلوب تقوم بكل ما تستطيع.." أجاب الخيميائي.

تابعا السير.. ووصلا في إحدى الأمسيات إلى معسكر لأحد قبائل الحرب.. كان العرب في كل مكان. يرتدون ثيابهم البيضاء الرائعة.. وكانت أسلحتهم على أتم الاستعداد للاستخدام. مرَّ المسافران من بينهم دون أن يعيرهم أحد الكثير من الاهتمام.. فقد كان الجميع يدخنون الأراكيل ويثرثرون متحدثين عن المعارك.

- "ليس هناك خطر.." قال الشاب عندما ابتعدا قليلاً.. فغضب الخيميائي وقال له:

- "اعتمد على قلبك لكن لا تنسَ أنك في الصحراء.

عندما يكون الرجال في الحرب.. تسمع النفس الكلية صُراخ المعارك أيضاً.. لا أحد في مأمن مما سيحدث تحت قبة السماء هذه."

- "كل الأشياء شيء واحد ووحيد.." فكّر الشاب.

وفي الحال ظهر لهما فارسان كانا يسيران خلفهما.. وكأن الصحراء أرادت أن تُثبت مصداقية كلام العجوز.

- "لا يمكنكما التقدُّم أكثر.. قال أحدهما. فأنتما في المنطقة المكرّسة للمعارك."

- "لن أبتعد كثيراً" قال الخيميائي، وهو ينظر للمحاربين في عيونهم مباشرة. فجمدا في مكانهما للحظة.. ثم أعطيا موافقتهما بمتابعة الرحلة.

راقب الشاب كل ما حدث.. وافتتن بقوة الخيميائي وقدرته العجيبة..

- "لقد قهرتهما بنظرتك فقط.." قال

ـ "إن العيون تُظهر قوة الروح.." أجابه الخيميائي.

ـ "هذا صحيح" قال الشاب لنفسه وقد انتبه لوجود رجل وسط حشد جنود المعسكر. كان قد ثبت نظره عليه.. وعلى الخيميائي. غير أنه كان بعيداً لدرجة يصعب معها تمييز ملامحه. ومع ذلك كان الشاب على ثقة بأنه يراقبهما.

أخيراً.. وبينما كانا يستعدان لاجتياز سلسلة جبلية تمتدُّ على كل الأفق، قال الخيميائي إنه لم يعد يفصلهما عن الأهرامات إلا مسير يومين.

ـ "إذا كان علينا أن نفترق قريباً، علمني الخيمياء.." طلب الشاب

ـ "إنك تعرف أصلاً ما يجب معرفته. فليس عليك سوى الدخول في النفس الكلية واكتشاف الكنز المحفوظ في داخلك."

ـ "ليس هذا ما أردت معرفته.. أنا أتحدث عن تحويل الرصاص إلى ذهب."

احترم الخيميائي صمت الصحراء. ولم يجب الشاب إلاّ عندما توقفا للطعام.

ـ "كل شيء في هذا الكون قابل للتطور.. والذهب بالنسبة لمن يعرفه هو المعدن الأكثر تطوراً. ولا تسألني لماذا فأنا أجهل ذلك. ما أعرفه فقط هو أن ما علمتنا إياه التقاليد صحيح دائماً.. لكن الناس لا يعرفون كيف يفسرونه بالشكل الصحيح. وبدلاً من أن يجعلوا الذهب رمزاً للتطور.. حوّلوه إلى إشارة للحرب."

ـ "الأشياء تتكلم بلغات عديدة، قال الشاب. لقد لاحظتُ كيف أن رغاء الجمل كان مجرّد رغاء.. ثم أصبح إشارة للخطر. ثم عاد في آخر الأمر ليصبح مجرد رغاء." لم يتابع الشاب حديثه.. مفترضاً أن الخيميائي عارف بكل هذه الأمور.

ـ "عرفت خيميائيين حقيقيين، قال الخيميائي. كانوا ينعزلون في مختبراتهم محاولين التطور كالذهب.. فاكتشفوا حجر الفلاسفة. كل هذا لأنهم أدركوا أنه عندما يتطوّر شيء ما.. فإن كل ما يحيط به يتطور أيضاً.. وعرفت آخرين نجحوا بالصدفة في إيجاد الحجر. مع أنهم كانوا يملكون الموهبة وكانت روحهم أكثر تيقظاً من الأشخاص الآخرين. لكن أولئك لا يُحسبون لأنهم نادرون.. وكان هناك آخرون لم يكونوا يبحثون سوى عن الذهب..

ومثل هؤلاء الأشخاص لا يجدون السر أبداً. لأنهم نسوا أن لدى الرصاص والنحاس والحديد أساطيرهم الذاتية أيضاً.. ومن يتدخّل في أسطورة الغير الذاتية لن يكتشف أسطورته الخاصة أبداً."

كان لكلام الخيميائي وقع اللعنة في نفس الشاب.

انحنى والتقط صدفة من أرض الصحراء.. وقدمها للشاب قائلاً:

- "كان البحر هنا في الماضي."

- "لقد سبق لي أن لاحظت هذا" ردَّ عليه الشاب.

طلب منه الخيميائي أن يضع الصدفة على أذنه.. لقد قام بهذه الحركة كثيراً عندما كان صغيراً ليسمع صوت البحر.

- "البحر داخل هذه المحارة دائماً، لأنه أسطورتها الذاتية. ولن تتركه أبداً، إلى أن تعود الأمواج لتغمر الصحراء من جديد." قال الخيميائي هذا ثم اتجه إلى جواده وامتطاه ففعل الشاب مثله.. وسارا معاً باتجاه أهرام مصر.

كانت الشمس قد بدأت بالميلان.. عندما أعطى قلب الشاب إشارة الخطر. وكانا حينها قد وصلا إلى مكان

محاط بالكثبان الضخمة. فنظر الفتى للخيميائي، لكن هذا تظاهر بأنه لم يلحظ شيء.. ولم يمض أكثر من خمس دقائق حتى عكست أشعة الشمس على الكثب المواجه لهما ظل فارسين.. فانتبه الشاب لذلك.. وأراد أن يخبر الخيميائي.. لكن قبل أن يتمكن من قول أي شيء.. كان الفارسان قد أصبحا عشرة.. ثم مئة.. وهكذا حتى امتلأت الكثبان كلها بالفرسان.

إنهم فرسان بلباس أزرق وعقال أسود كبير على العمامة.. ووجوه مخفية وراء لثام أزرق لا يظهر سوى العيون.

في هذه اللحظة كانت العيون تُظهر قوّة الروح.. إنها عيون تتحدث عن الموت.

اقتيد المسافران إلى مخيم عسكري في الجوار. حيث دُفع بهما إلى داخل خيمة لا تشبه أبداً تلك الموجودة في الواحة. كان في الداخل قائد حربي محاط بأركان جيشه.. وما إن دخل الغريبان حتى قال أحد الرجال: ـ "هؤلاء هم الجواسيس."

ـ "لسنا سوى مسافرين" قال الخيميائي.

ـ "لقد شوهدِتم في معسكر الأعداء منذ ٣ أيام. وقد تحدثتما مع أحد المحاربين."

ـ "أنا رجل يجوب الصحراء ويعرف النجوم، قال الخيميائي. وليس لدي أية معلومات عن العصابات أو عن تحركات القبائل. كل ما كنت أقوم به هو إرشاد هذا الشاب على هنا."

ـ "ومَن يكون هذا؟" سأل القائد.

ـ "إنه خيميائي، أجاب الخيميائي. وهو يعرف قدرات الطبيعة.. ويود أن تسمح له بإظهار إمكانياته الخارقة."

جمد الشاب في مكانه عندما سمع هذا الكلام.

ـ "وماذا يفعل غريب في أرض غريبة؟" سأل أحد الرجال.

ـ "أحمل المال لأقدّمه لكم" قال الخيميائي متدخلاً.. وفي الحال خطف كيس نقود الشاب وأعطى القطع الذهبية للقائد. فأخذها هذا دون أن يقول شيئاً. وعدّها فوجدها كافية لشراء عدد كبير من الأسلحة.

ـ "ماذا يعني خيميائي؟" سأل العربي أخيراً.

ـ "إنـه الرجـل الـذي يعـرف الطبيعـة والعـالم. وإذا أراد بإمكانه أن يهدم هذا المعسكر برمّته مستخدماً فقط قوّة الريح.

أخـذ الرجـال يـضحكون.. فقـد كـانوا معتـادين علـى عنف الحـرب.. وهـم متأكـدون مـن أن الـريح لا يمكنهـا أن تضرب ضربة قاتلة. ومع ذلك فقد انقبض قلب كل واحد منهم في صدره، إنهـم رجـال الـصحراء.. وهـم يخـافون مـن السَحرة والمشعوذين.

ـ "حسناً.. أرنا شيئاً من قدراتك.." قال القائد.

ـ "بكـل سـرور.. لكـن أمهلنـا ثلاثـة أيـام، قـال الخيميائي. ليتحول إلى ريح ويُظهر لك قوة قدراته. وإذا لم ينجح، لكم أن تأخذوا الحياة منا بكل طيب خاطر.. من أجل شرف قبيلتكم."

ـ "لا يمكنك أن تقدم لي ما أملكه أصلاً.." قال القائد بعجرفة. ومنح المسافرين ثلاثة أيام.

شُلَّت حركة الشاب من شدة رعبه.. فاضطر الخيميائي إلى مسكه من ذراعيه ليساعده على الخروج من الخيمة.

ـ "حاول ألاّ تُظهر خوفك، قال له. إنهم بواسل يحتقرون الجبناء.."

فقد الشاب قدرته على الكلام.. ولم يعد إليه الصوت إلا بعد مرور بعض الوقت عندما كانا يسيران وسط المعسكر. لأنهما لم يسجنا.. لأن السجن لا ينفع معهما فقد سُحبت خيولهم منهم.. وهذا كافٍ لمنعهم من الهرب.

ها هو العالم يُظهر مرّة جديدة لغات لا حصر لها: الصحراء التي كانت حتى هذا الوقت فضاءً حراً بلا حدود.. تتحول الآن إلى سور مرتفع لا يمكن تجاوزه..

ـ "لقد أعطيتهم كل كنزي! قال الشاب. كل ما كسبته خلال حياتي."

ـ "وبماذا سيفيدك هذا.. إذا كنت ستموت. لقد منحك مالك ثلاثة أيام من الحياة.. وفي أغلب الأحيان لا يفيدنا المال في تأخير الموت.."

لكن الشاب كان مرعوباً وغير قادر على سماع كلام الحكمة.. فهو لا يعرف كيف يتحول إلى ريح لأنه ليس خيميائي.

طلب الخيميائي شاياً من أحد المحاربين ثم سكب القليل منه على معصمي الشاب.. فأحس هذا بموجة صفاء تختلجه، بينما كان الخيميائي يتلفظ ببعض الكلمات التي لم يستطع فهمها.

- "لا تستسلم لليأس، قال الخيميائي. بصوت عذب إلى حد الغرابة. فذلك يمنعك من الحديث مع قلبك."

- "لكنني لا أستطيع التحول إلى ريح."

- "مَن استطاع أن يعيش أسطورته الذاتية.. يعرف كل ما يجب معرفته. ليس هناك إلاّ شيء واحد يجعل الحلم مستحيلاً: إنه الخوف من الفشل."

- "لست خائفاً من الفشل. لكنني بكل بساطة لا أعرف كيف أتحول إلى ريح."

- "إذاً تعلَّم ذلك فحياتك كلها متعلقة بهذا الأمر."

- "وإذا لم أتوصل إلى ذلك؟"

- "ستموت.. لكنك عشت أسطورتك الذاتية.. وذلك أفضل بكثير من الموت مثل ملايين الناس، الذين لم يعرفوا شيئاً قط عن وجود الأسطورة الذاتية. لكن لا تقلق فالموت بشكل عام، يجعلنا أكثر حرصاً على حياتنا."

مـرَّ اليـوم الأول.. وحـدث فيـه معركـة ﮐ الجـوار.. اقتيـد على أثرها العديد من الجرحى إلى المعسكر.

ـ "لا يتغير شـيء مـع المـوت" فكّـر الشـاب. فقـد استُبدل المحاربين الذين ماتوا بآخرين.. واستمرت الحياة.

ـ "يمكنـك أن تمـوت لاحقـاً، صـديقي، قـال محـارب يرتدي الجلد لأحد زملائه ﮐ المعركة. يمكنك أن تمـوت ﮐ أحـد الأيـام عنـدما يعـود السـلام. لكنـك علـى كـل الأحـوال ستموت ﮐ نهاية المطاف."

قـرب المـساء.. ذهـب الـشاب إلى الخيميـائي الـذي كـان يصطحب الصقر ﮐ الصحراء. وقال له.."

ـ لا اعرف أن أتحول إلى ريح.."

ـ "تـذكـر مـا قلتـه: لـيس العـالـم سـوى الجـزء المرئـي مـن الله. والخيمياء تنقل الكمال الروحي إلى العالم المادي."

ـ "ماذا تفعل؟"

ـ "أُطعم صقري.."

ـ "إذا لم أنجـح بـالتحول.. سـتموت.. فمـا الحاجـة لإطعـام الصقر؟"

ـ "أنت ستموت.. أجاب الخيميائي.. أمَّا أنا فأعرف كيف أتحول إلى ريح."

في اليوم التالي تسلق الشاب الجلمود الموجود قرب المعسكر. وقد تركه الخطر يمرُّ بسلام.. فقد سمعوا عن ساحر يتحول إلى ريح ولم يريدوا الاقتراب منه. إضافة إلى أن الصحراء سور عال لا يمكنه تجاوزه.

أمضى بعد ظهيرة ذلك اليوم في النظر إلى الصحراء.. أصغى لقلبه وسمعت الصحراء الخوف الذي كان يسكنه. فقد كان كلاهما (القلب والصحراء) يتحدثان نفس اللغة.

في اليوم الثالث، جمع القائد الأعظم ضباطه الرئيسيين حوله. وقال للخيميائي: ـ "هيا بنا لنرى هذا الفتى الذي يتحول إلى ريح."

ـ "هيا.." أجابه الخيميائي.

قادهم الشاب إلى المكان الذي كان فيه عشية أمس. ثم طلب من الجميع أن يجلسوا. وقال لهم أن يصبر لأن هذا يتطلب بعض الوقت، فأجابه القائد الأعظم:

ـ "لسنا مستعجلين.. إننا رجال صحراء."

أخذ الشاب ينظر إلى الأفق المواجه له.. كان هناك جبال بعيدة وكثبان.. وجلاميد.. ونباتات متعرّشة قد تأقلمت مع العيش في هذا المكان البعيد عن الحياة. وكانت الصحراء التي جال فيها طيلة شهور وشهور ومع ذلك ما زال لا يعرف منها إلاّ جزءاً صغير جداً التقى فيه بالإنكليزي والقوافل.. وصراع القبائل.. وبواحة بخمسة آلاف نخلة وثلاثمئة بئر.

ـ "ماذا تريد مني اليوم؟ سألت الصحراء. لم نتأمَّل بعض كفاية البارحة"

ـ "أنت تحفظين في أحد جوانبك مَن أحب. لذلك عندما أنظر إلى امتداد رمالك.. أتأمَّل فيها محيًّا حبيبتي. أريد أن أعود إليها.. ولهذا أحتاج مساعدتك لأتحوّل إلى ريح."

ـ "ما هو الحب؟" سألت الصحراء.

ـ "الحب.. هو طيران الصقر فوق رمالك.. فأنت بالنسبة له حقل مخضوضر. الحب.. هو عودة الصقر بفريسته دائماً فهو يعرف جلاميدك وكثبانك.. وأنت كريمة معه."

ـ "منقار الصقر ينتزع مني أجزاء، قالت الصحراء. لقد أطعمت فريسته هذه لسنوات عديدة.. ورويتها بالقليل من الماء

الذي أملكه والذي كنت أُظهره لها حيث يمكنها أن تجد ما تأكله. وفي أحد الأيام عندما كنت سأحس بمداعبة القنيصلة لرمالي.. نزل الصقر من السماء وأخذها.. لقد أخذ ما رعيته وكبَّرته."

- "ولكنك غذيتي الطريدة وربيتها من أجل هذه النهاية بالتحديد ، أجاب الشاب. من أجل إطعام الصقر.. ثم الصقر يُطعم الإنسان.. والإنسان يُطعم رمالك في أحد الأيام.. ومن رمالك تتولّد طريدة جديدة.. وهكذا يسير العالم."

- "هذا هو الحب؟"

- "نعم هذا هو.. إنه مَن يجعل الطريدة تتحول إلى صقر.. والصقر إلى إنسان.. والإنسان يعود صحراء من جديد.. إنه الحب.. نعم الحب هو مَن يجعل الرصاص يتحول إلى ذهب.. ثم يجعل الذهب يعود ليُدفن تحت الأرض من جديد.."

- "لا أفهم كلامك" قالت الصحراء.

- "إذاً اعلمي على الأقل أنه في مكان ما وسط رمالك. هناك امرأة تنتظر عودتي إليها. وكي أستطيع العودة. عليَّ أن أتحوَّل إلى ريح.."

بقيت الصحراء صامتة للحظات ثم قالت:

ـ "سأعطيك رمالي كي تتمكن الريح من الهبوب. لكن أنا وحدي لا أستطيع فعل شيء. إذا أردت اطلب المساعدة من الريح."

أخذت نسمة صغيرة تصفر.. وكان قادة الحرب جميعاً يراقبون الشاب من بعيد وهو يتحدث بلغة يجهلونها.

وكان الخيميائي يبتسم.

وصلت الريح إلى قرب الشاب وورّدت وجهه. كانت قد سمعت حديثه مع الصحراء.. فالريح تعرف كل شيء دائماً. إنها تجوب العالم دون أن يكون لديها مكان ولادة أو مكان تموت فيه.

ـ "ساعديني، قال الشاب. ذات يوم حملتي إليَّ صوت محبوبتي."

ـ "مَنْ علّمك التحدث بلغة الصحراء والريح؟" سألت الريح.

ـ "قلبي"

كان للريح أسماء عديدة.. فهنا تُدعى بالسموم[1].. لأن العرب كانوا يعتقدون بأنها جاءت من أرضٍ هجرها الماء مسكونة بأناس ذوو جلد أسود.. أمَّا في البلاد البعيدة من حيث جاء الشاب.. فقد كانوا يسمونها بالشرقية. لأن الناس هناك يعتقدون بأنها تحمل رمل الصحراء.. وصرخات حرب المغاربة. وربما في مكان آخر.. حيث تمرُّ الخراف في البراري.. يفكّر الناس بأن الريح قد ولدت في الأندلس..

لكن الريح لم تأتي من أي مكان.. ولا تذهب إلى أي مكان. لهذا السبب هي أقوى من الصحراء..

وربما سيأتي يوم تُزرع فيه الصحراء.. وتُربّى فيها الخراف ـ لكن لن يستطيع أحد السيطرة على الريح.

ـ "لا يمكنك أن تكون الريح، قالت للشاب. فطبيعتانا مختلفتين"

ـ "هذا غير صحيح.. لقد تعلّمت أسرار الخيمياء بينما كنت أجوب العالم معك.. هنا.. في داخلي.. يوجد رياح وصحارى.. ومحيطات.. ونجوم.. وكل ما ولِدَ في الكون. لقد خلقتنا نفس اليد، ولدينا نفس الروح. أريد أن أكون مثلك:

١- رياح جنوبية شرقية حارة.

أدخل في كل مكان.. وأجتاز البحار.. وأرفع الرمال التي تغطي كنزي وأحمل صوت محبوبتي إلى جانبي."

ـ "لقد سمعت حديثك مع الخيميائي في أحد الأيام. وقد كان يقول لك أن لكل شيء أسطورة ذاتية. لذلك لا يمكن للكائنات البشرية أن تتحول إلى ريح.."

ـ "علميني كيف أكون ريحاً للحظات.. كي نتمكن من الحديث معاً عن الإمكانيات اللامحدودة للبشر والريح."

كانت الريح فضولية.. وبما أنه كان هناك شيء لا تعرفه تشوقت للحديث عن الموضوع.. لكنها لم تكن تعرف كيف تحول الإنسان إلى ريح، بالرغم من أنها تعرف أشياء كثيرة.. فهي تعرف كيف تعمِّر الصحارى.. وتغرق السفن.. وكيف تهدم غابات بأكملها.. وتنشر الضوضاء الغريبة والموسيقا في المدن..

كانت الريح تعتقد أن لا حدود لها قط.. لكنها اليوم عرفت من هذا الشاب أن بإمكانها أن تقوم بأشياء أخرى أيضاً.

ـ "هذا ما ندعوه بالحب، قال الشاب وهو يرى الريح على وشك أن توافق على طلبه. عندما نُحبُّ نصبح شيئاً من

الخلق.. ولا نحتاج إلى فهم ما يحدث لأن كل شيء آنذاك يحدث في داخلنا. يستطيع الناس أن يتحولوا إلى ريح.. بشرط أن تساعدهم الريح على ذلك."

كانت الريح متكبرة جداً، وقد أثار سخطها ما قاله الشاب.. فأخذت تصفر بقوّة وترفع رمال الصحراء. وفي النهاية توجّب عليها أن تعترف أنه حتى بعد أن طافت العالم بأسره ما زالت لا تعرف كيف تحوّل الإنسان إلى ريح.. ولا تعرف ما هو الحب.

ـ "لاحظت خلال تجولاتي في العالم أن الكثير من الناس يتحدثون عن الحب وهم ينظرون إلى السماء، قالت الريح وهي حانقة لأنها مرغمة على الإقرار بحدودها. ربما من الأفضل لك أن تطلب ذلك من السماء."

ـ "إذاً ساعديني وغطي هذا المكان بالغبار لأتمكن من النظر إلى الشمس دون أن تُعميني."

هبّت الريح بقوة حجبت معها السماء بالرمال. وأصبحت الشمس طبق من الذهب الخالص.

في هذا الجو المليء بالغبار أصبح من الصعب على الجالسين في المعسكر تمييز ما يحدث. إن رجال الصحراء

يعرفون جيداً هذه الريح.. إنها السموم وهي بالنسبة لهم أسوأ من عاصفة بحرية. مع أنهم لا يعرفون البحر أصلاً.

قُلبت الدنيا وأخذت الخيول تصهل.. وغُطَّت الأسلحة بالرمال..

وعلى الجلمود.. التفت أحد الضباط نحو القائد الأعظم وقال:

- "ربما من الأفضل أن نتوقف عند هذا الحد.."

كانت العيون المطلة من تحت اللثام الأزرق تنفتح بصعوبة بالغة لتنفرج عن نظرات مليئة بالهلع.

- "لننهي هذا ، ألحَّ ضابط آخر"

- "أريد أن أرى عظمة الله.. أريد أن أرى تحوّل الإنسان إلى ريح." قال القائد بخشوع شديد.. وعلّم ذهنياً على أسماء هذان الرجلان الخائفان. ليجرّدهما من إمرته عندما تهدأ الريح. فالخوف ليس من صفات رجال الصحراء.

"قالت لي الريح إنكِ تعرفين الحب، قال الشاب للشمس. إن كنت تعرفين الحب، فأنت تعرفين أيضاً النفس الكلية. التي صنعت الحب."

ـ "من هنا، أجابت الشمس. يمكنني أن أرى النفس الكلية. إنها على اتصال بروحي إننا نتعاون معاً ننمي النباتات ونقود النعاج التي تبحث عن الظل. من هنا، من حيث أنا (وأنا بعيدة جداً عن العالم)، تعلَّمت أن أحب. إني أعرف أن اقترابي من الأرض أكثر يعني حرقها بكل ما عليها. وتوقف النفس الكلية عن الوجود. إننا نحب بعضنا كلٌّ من موقعه فأنا أمنحها الحياة بحرارتي.. وهي تعطيني سبباً لوجودي."

ـ "إذاً أنت تعرفين الحب!" قال الشاب.

ـ "وأعرف النفس الكلية أيضاً.. ولدينا معاً أحاديث طويلة خلال رحلتنا اللامتناهية في هذا الكون. إنها تشكو لي مشكلتها الأكبر على الإطلاق وهي أنه حتى الآن الجماد والنبات وحدهم مَن أدركوا أن كل الأشياء هي شيء واحد ووحيد. ولذلك ليس من الضروري أن يكون الحديد مماثلاً للنحاس.. ولا أن يكون النحاس مثل الذهب. فكل واحد له مكانه ووظيفته المحدودة في هذا الشيء الوحيد. وكان من الممكن جداً أن يصبح كل شيء سمفونية سلام لو توقفت اليد التي كتب كل هذا.. في اليوم الخامس. لكن قُدِّر أن يوجد الناس اليوم السادس."

ـ "إنك حكيمة فكل شيء واضح لك لأنك ترين من بعيد ، قال الشاب. لكنك لا تعرفين الحب.

لولا وجود اليوم السادس.. لما كان الإنسان، ولكان النحاس بقي نحاساً والرصاص رصاصاً. لكلٍ أسطورته الذاتية هذا صحيح.. لكن يجب أن تكتمل هذه الأسطورة الذاتية ذات يوم. لأن الأشياء يجب أن تتطور.. وتتحول إلى شيء أفضل. وهكذا يصبح لديها أسطورة ذاتية جديدة.. ويستمر الأمر على هذا الحال حتى تصبح النفس الكلية بالفعل شيئاً واحداً ووحيداً."

بقيت الشمس شاردة للحظة وأخذت تلتهب بشكل أكبر..

أمَّا الريح التي أعجبها الحديث فقد هبَّت بقوة كي تحمي الشاب من أشعة الشمس..

وتابع الشاب حديثه قائلاً: ـ "لذلك هناك الخيمياء.. كي يبحث كل إنسان عن كنزه ويجده.. ويصبح أفضل مما كان عليه في حياته السابقة. سيملأ الرصاص دوره إلى أن يكتفي العالم منه.. وعندها سيكون لزاماً عليه أن يتحول إلى ذهب.

لقد توصّل الخيميائيون إلى تحقيق هذا التحوّل. وأظهروا لنا أنه، عندما نسعى لنكون أفضل مما نحن عليه.. يصبح كل شيء من حولنا أفضل أيضاً."

- "ولماذا تقول أنني لا أعرف الحب؟" سألته الشمس.

- "لأن الحب لا يرتكز على البقاء بثبات مثل الصحراء، ولا على اجتياز العالم مثل الريح.. ولا على النظر من بعيد مثلك.. الحب هو القوة التي تحوّل وتحسّن النفس الكلية..

عندما دخلت فيها للمرّة الأولى.. اعتقدت أنها كاملة لكن فيما بعد وجدتها انعكاس لكل ما خُلق.. وأن لها حروبها.. وأهوائها. إننا نَحن مَن نُغذِّي النفس الكلية.. والأرض التي نعيش عليها تكون أفضل أو أسوأ حسب ما نكون نحن أفضل أو أسوأ. وهنا يأتي دور الحب.. لأنه عندما نحب نريد دائماً أن نكون أفضل مما نحن عليه.

- "ماذا تريد مني؟" سألت الشمس.

- "أريد أن تساعديني لأتحول إلى ريح."

ـ "لقد عرفتني الطبيعة كالأكثر حكمة بين كل المخلوقات، قالت الشمس. لكنني لا أعرف كيف أحولك إلى ريح."

ـ "إذاً إلى مَن يجب أن أتوجه؟"

صمتت الشمس للحظة. كانت الريح تُصغي.. وكانت ستنشر في العالم بأسره أن علمها كان محدوداً.. ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تتخلص من هذا الشاب الذي يتحدث لغة العالم."

ـ "لترى اليد التي كتبت كل شيء.." قالت الشمس.

أطلقت الريح صرخة رضا وهبَّت بقوة لم تفعل مثلها من قبل. فاقتلعت الخيام المنصوبة فوق الرمال وتحررت الحيوانات من قيودها. واضطر الرجال أن يتمسكوا ببعضهم البعض على الجلمود كي يتجنبوا أن تحملهم الريح أيضاً.

التفت الشاب نحو اليد التي كتبت كل شيء. لكنه لم يستطع أن يطلب منها شيء.. فقد كان العالم بأسره صامتاً من حوله. وشعر بفطرة الحب تنبثق من قلبه.. فأخذ يصلي.. كانت صلاته فريدة لم يقم بمثلها من قبل.. لم

يطلب فيها شيئاً.. ولم يشكر لأنه وجد مرتعاً لخرافه.. ولم يلتمس أيضاً التوصل إلى بيع المزيد من الزجاجيات.. وكذلك لم يطلب أن تنتظر محبوبته عودته..

كانت صلاة بلا كلمات.. صلاة صامتة.. وفي هذا الصمت أدرك أن الصحراء والريح والشمس كانوا يبحثون أيضاً عن الإشارات التي كانت قد خطتها تلك اليد، ويريدون متابعة دروبهم.. ومعرفة ما كتب فوق زمرّدة بسيطة.

كان يعرف أن هذه الإشارات قد وزِّعت في الأرض والسماء وأنه في الظاهر ليس هناك أي هدف من وجودها. وأن لا الصحارى ولا الرياح ولا الشموس ولا الإنسان.. لم يعرفوا أبداً لماذا خُلقوا.. لكن هذه اليد كان لديها سبب لكل هذا.. وهي وحدها كانت قادرة على صنع المعجزات وعلى تحويل المحيطات إلى صحارٍ.. والبشر إلى ريح. لأنها وحدها كانت تُدرك أن هدفاً سامياً دفع الكون إلى أن تحولت أيام الخلق الستة إلى إنجاز عظيم.

في دوامة كل هذا، غرق الشاب في النفس الكلية.. ورأى أن هذه النفس تشكل جزءاً من روح اللّه.. وأن نفس

اللّه هــي الخاصــة.. عنــدها أحــسَّ أن بإمكانــه تحقيــق المعجزات.

هبَّت السموم في ذلك اليوم كما لم تهب منذ أجيال. سيروي العرب أسطورة شاب كان قد تحوَّل إلى ريح وهدم معسكر بأكمله.. متحدياً سلطان أهم قادة الحرب في الصحراء.

توقفت الريح.. واتجهت أنظار الجميع إلى حيث كان الشاب.. فلم يروه هناك. كان موجوداً بجانب أحد الخفر المغطّى كلياً تقريباً بالرمال المحمولة من الجهة الأخرى للمعسكر.

سيطر الرعب والذهول على الجميع.. لكن كان هناك رجلان يبتسمان: الخيميائي الذي وجد أخيراً تلميذه الحقيقي.. والقائد الأعظم المسرور برؤية هذا الشاب مُدركاً عظمة اللّه.

وفي اليوم التالي.. ودّع القائد الشاب والخيميائي.. وأرفقهم بحراسة إلى المكان الذي يقصدونه.

مرَّ النهار وهما يسيران.. وحين هبط الليل كانا قد وصلا إلى دير قبطي.. فصرف الخيميائي المرافقة وترجَّل.

ـ "ابتداءً من هنا ستذهب لوحدك، قال. لم يعد يفصلك الآن عن الأهرامات أكثر من مسير ثلاث ساعات."

ـ "شكراً لك، قال الشاب. لقد علّمتني لغة العالم."

ـ "لم أقم إلاّ بتذكيرك بما كنت تعرفه مسبقاً."

دقَّ الخيميائي على باب الدير.. فجاء راهب يرتدي السواد وفتح الباب.

تحدّث معه الخيميائي باللغة القبطية. ثم دخلوا جميعاً..

قال الخيميائي للشاب مفسراً: ـ "طلبت منه أن يسمح لي باستخدام المطبخ لبعض الوقت.."

ذهب الثلاثة إلى مطبخ الدير.. وهناك أشعل الخيميائي النار.. وطلب من الراهب أن يجلب له القليل من الرصاص في وعاء من الحديد.. إلى أن أصبح سائلاً تماماً ـ عندئذ أخذ من كيسه تلك البيضة الغريبة ذات الزجاج الأصفر وكشط منها قشرة بثخن الشعرة، ثم غلفها بالشمع ورماها في الوعاء الذي يحتوي على الرصاص الذائب.. فأخذ الخليط لون أحمر كلون الدم.. آنذاك رفع الخيميائي الوعاء عن النار وتركه ليبرد.. وفي انتظار ذلك أخذ يتحدث مع الراهب عن حرب القبائل.

- "ستستمر هذه الحرب." قال الخيميائي للراهب الذي كان مستاءً فقد توقفت المواكب منذ وقت طويل في الجيزة بانتظار نهاية الصراع.

- "إنها إرادة اللّه.." قال الراهب.

- "ونعم باللّه.." قال الخيميائي.

برد المستحضر ونظر الشاب والراهب.. ويا للدهشة!!

كان المعدن قد جف على كل الحواف الداخلية للإناء.. لكنه لم يعد رصاص إنه ذهب.

- "هل سأتمكن ذات يوم من تعلّم عمل شيء كهذا؟" سأل الشاب.

- "إنها أسطورتي الذاتية وليست أسطورتك، أجابه الخيميائي. لكنني أردت أن أبين لك أن ذلك ممكن."

خرجوا من المطبخ باتجاه مدخل الدير.. وهناك قسم الخيميائي القرص إلى أربعة قطع. ثم قدّم أحدها للراهب، قائلاً:

- "هذا من أجلك.. تقديراً لكرمك مع الحجاج.."

- "هذا أكثر مما أستحق على كرمي" قال الراهب.

ـ "لا تتكلم هكذا ، فإذا سمعتك الحياة ستعطيك في المرة القادمة أقل." قال هذا للراهب ثم اقترب من الشاب وقدّم له جزء من القرص الذهبي قائلاً: ـ "هذا لك.. كي تعوّض ذهبك الذي بقي بين يدي قائد الحرب."

أراد الشاب أن يقول له أن هذا أكثر بكثير مما خسره.. لكن كلمات الخيميائي للراهب رنّت في باله ومنعته من ذلك.

ـ "وهذا الجزء لي.. قال الخيميائي. لأنه عليَّ أن أعود مجتازاً الصحراء.. وهناك كما تعلمان ـ حرب القبائل.."

ثم أخذ القطعة الرابعة وأعطاها للراهب..:

ـ "هذه الحصة من أجل هذا الفتى.. إذا ما احتاج إليها.." قال مشيراً للشاب.

ـ "لكنني سأبحث عن كنزي، قال الشاب. وأنا الآن قريب منه جداً.."

ـ "وأنا متأكد من أنك ستجده.."

ـ "إذاً لماذا هذه الحصة الإضافية؟"

ـ "لأنك خسرت مالك خلال سفرك مرتين.. أولاً مع اللص.. ثم مع قائد الحرب.. أنا عجوز يؤمن بالخرافة.. وأؤمن

بأمثال بلدي.. وأحد هذه الأمثال يقول –"كل ما يحدث مرّة.. يمكن ألاّ يحدث مرة أخرى.. لكن ما يحدث مرتين سيحدث بالتأكيد مرة ثالثة.." أخذ الراهب الجزء الرابع ثم امتطى المسافران جواديهما وابتعدا..

ـ "أريد أن أقص عليك حكاية عن الأحلام.." قال الخيميائي.. فاقترب الشاب بحصانه.

ـ "حدثت حكايتي هذه في روما القديمة.. في زمن الإمبراطور "تيباريوس" كان هناك رجل طيب جداً.. له ولدان. أحدهما متطوع في الجيش.. وقد أُرسل إلى الولايات الأبعد في الإمبراطورية.. والآخر شاعر أفتن روما بأبياته الجميلة الرنانة..

وفي أحد الليالي.. رأى الأب حلماً ظهر له فيه ملاك يقول له إن كلام أحد ولديه سيكون ذو شهرة وقيمة كبيرة.. وسيردد في العالم بأسره عبر كل الأجيال القادمة. استيقظ الأب العجوز وهو يبكي من الفرح.. لأن الحياة أظهرت كرمها له.. عرف شيئاً يجعل أي أب في العالم فخوراً بأولاده. وبعد فترة قصيرة توفي هذا الرجل بينما كان يحاول أن ينقذ طفلاً كان سيداس تحت عجلات العربة.

وبما أنه قد قام بهذا العمل الإنساني.. وتصرّف طوال حياته بشرف.. استحق الذهاب إلى السماء مباشرةً.. وهناك التقى بالملاك الذي كان قد ظهر له في الحلم.

- "لقد كنت رجلاً طيباً قال له الملاك.. عشت في الحب طوال حياتك ومت بكرامة وشرف.. واليوم أريد أن أحقق لك أي أمنية من أمنياتك.."

- "كانت الحياة طيبة معي أيضاً. عندما ظهرت لي في الحلم أدركت أن جهودي قد أثمرت لأن أشعار ابني ستبقى في ذاكرة الناس خلال كل القرون القادمة.. ليس لدي ما أريده لنفسي.. لكنني ككل الآباء أزدهي برؤية مَن رعيت عندما كان طفلاً وهذبت عند الشباب.. في شهرة وازدهار.

لذلك أريد أن أرى كيف سيتردد كلام ولدي في المستقبل البعيد."

لمس الملاك كتف العجوز فأُلقيا كليهما في المستقبل البعيد.. وهناك كانت ساحة واسعة فيها آلاف الأشخاص يتكلمون فيما بينهم بلغة غريبة وحين شاهد العجوز هذا بكى فرحاً.. ثم قال للملاك:

ـ "كنت أعرف أن أشعار ولدي جميلة وخالدة.. أرجوك أخبرني أي قصيدة من قصائده يتلو هؤلاء الناس؟"

اقترب الملاك منه بلطف كبير ودعاه للجلوس معاً على أحد المقاعد الموجودة في ذلك المكان الرحب. ثم قال للأب:

ـ "قصائد ابنك لاقت شهرة كبيرة في روما.. وكان الشعب كله يحبها ويستمتع بها.. لكن عندما انتهى حكم "تيباريوس طواها النسيان.. إن الكلام الذي يردده هؤلاء الناس هو لابنك الآخر.. الجندي.."

ـ "لقد خدم ابنك في مقاطعة بعيدة.. وأصبح قائد المئة[1].. وقد كان إنساناً مستقيماً وطيباً. وفي إحدى الأمسيات مرض أحد مخدوميه واقترب من الموت. حاول ابنك أن يساعده.. فبحث له عن طبيب.. وأثناء بحثه سمع عن حاخام يُشفي المرضى، فقرر الذهاب إليه وهكذا أمضى أياماً وأياماً من السفر بحثاً عنه وأثناء رحلته هذه ومن خلال ما سمع اكتشف أن هذا الرجل الذي يبحث عنه هو ابن اللّه.. والتقى بأشخاص كان قد أبرأهم من أمراضهم.. وسألهم كيف قام بذلك وتدرّب على تعليماته.. وهكذا

١- عند الرومان.

تحوّل من قائد المئة إلى رجل مؤمن مهتدي.. وأخيراً في إحدى الصباحات وصل إلى الحاخام وأخبره عن مرض مخدومه.. أظهر الحاخام استعداده لمرافقة الشاب إلى المريض.. لكن قائد المئة كان رجلاً مؤمناً وأدرك وهو ينظر إلى أعماق عيني الحاخام أنه بالفعل أمام ابن اللّه.. فانتظر حتى انصرف الناس من حولهم.. وقال للحاخام كلمات لم تُنس أبداً: ـ "سيدي، أنا لا أستحق أن تدخل إلى بيتي.. لذلك أرجو أن تقول لي كلمة واحدة فقط وسيُشفى مخدومي في الحال."

حثَّ الخيميائي وقال:

ـ "ما يفعله أي شخص على الأرض يلعب دائماً دوراً رئيسياً في تاريخ العالم. ومن الطبيعي ألا يعرف المرء بدوره هذا"

ابتسم الشاب ـ لم يكن يتصور أن تصبح الحياة مهمة إلى هذا الحد بالنسبة لراعٍ..

قال الخيميائي: ـ "وداعاً.."

ـ "وداعاً" أجاب

تابع سيره في الصحراء.. وحاول خلال ساعتين ونصف من المسير أن يُصغي إلى ما يقوله قلبه بانتباه.. فهو من سيكشف له عن المكان الصحيح حيث يُخبأ الكنز.

ـ "هناك حيث سيكون قلبك أيضاً" قال الخيميائي ذات يوم.

لكن قلب الشاب كان يحدثه عن أشياء أخرى.. كان يروي له بزهو قصة راعٍ ترك خرافه ليمشي وراء حلم رآه مرتين.. كان يتحدث عن الأسطورة الذاتية وعن كل الأشخاص الذين فعلوا نفس الشيء.. وانطلقوا بحثاً عن أرضٍ بعيدة أو عن نساء جميلات، متحدين أناس عصرهم بأفكارهم وتعصباتهم وانحيازاتهم. طوال كل هذه المسافة تكلم عن اكتشافات وكتب وثورات كبيرة.

وفي اللحظة التي استعد فيها لارتقاء أحد الكثبان همس قلبه له قائلاً:

ـ "انتبه جيداً للمكان الذي ستبكي فيه فهناك سأكون أنا.. وهناك يُدفن كنزك.."

ارتقى الشاب الكثب ببطء.. كانت السماء في تلك الليلة مليئة بالنجوم ومضاءة بنور البدر.. لقد سار لشهر

كامل مع الخيميائي في الصحراء.. وطوال هذه الفترة كان القمر ينير الكثبان فترسم هذه ظلالاً تجعل الصحراء تبدو كالبحر الهائج.

ذكّره هذا المنظر بذلك اليوم الذي أطلق فيه العنان لحصانه وأعطى للخيميائي الإشارة التي كان ينتظرها منه. إن ضياء القمر يغمر سكون الصحراء وهذه الرحلة الطويلة التي يقوم بها الناس بحثاً عن كنوزهم.

وصل الشاب أخيراً إلى قمة الكثب فوثب قلبه من صدره.

عظيمة وهائلة.. ومضاءة بسناء البدر وبياض الصحراء.. إنها الأهرامات سقط على ركبتيه وبكى.. كان يشكر اللّه لأنه آمن بأسطورته الذاتية.. ولأنه التقى في أحد الأيام بملك.. ثم بتاجر.. وإنكليزي وخيميائي.. وقبل كل شيء لأنه التقى بامرأة صحراء، أفهمته أنه لا يمكن للحب أن يبعد الإنسان أبداً عن أسطورته الذاتية.

انتصبت الأهرامات أمامه بكل شموخ. كانت تتأمل من عليائها وبكل عصورها وأجيالها ذلك الذي عند أقدامها.. لو أراد لكان بإمكانه أن يعود إلى الواحة.. ويتزوج

فاطمة ويعيش هناك كراع عادي للخراف.. فالخيميائي كان يعيش في هذه الصحراء.. مع أنه يعرف لغة العالم.. وكيف يحول الرصاص إلى ذهب.. لم يكن عليه أن يُظهر علمه وفنه. بينما كان يسير باتجاه أسطورته الذاتية تعلّم كل ما كان يحتاج إلى معرفته وعاش كل ما حلم بأن يعيشه.

لقد وصل إلى كنزه.. وعليه أن ينهي عمله ويبلغ غايته.. عند قمة الكثب بكى.. وحين نظر إلى الأرض رأى أنه في المكان الذي سقطت فيه دموعه كان هناك جُعل[1]. لقد تعلّم خلال الوقت الذي أمضاه في الصحراء أن الجعلانات في مصر رمز لله..

إذاً هي إشارة أخرى.. بدأ يحفر متذكراً كلام بائع الزجاجيات عن الأهرامات لكن لا.. حتى ولو كوّم الحجارة طوال كل حياته لن ينجح أحد في جعل الهرم في حديقة بيته..

١- نوع من الخنافس.

بدأ يحفر وظل يعمل طوال الليل.. لكنه لم يجد شيئاً ـ كانت القرون والعصور تتأمله من أعلى الأهرامات بصمت.. لكنه لم يستسلم أبداً.

كان يحفر وينبش دون انقطاع مصارعاً الريح التي أعادت الرمال أكثر من مرّة إلى قعر الحفرة.. وبالرغم من تعب يديه التي أثملتها الجراح استمر في الحفر لأنه يصدّق قلبه ـ وقلبه قال له أن يحفر حيث تسقط دموعه.

وفجأة بينما كان يحاول انتزاع بعض الحجارة التي اقتلعا من الأرض، سمع خطوات تقترب منه. وبما أن ضوء القمر كان معاكساً له، لم يستطع أن يميز ملامح الرجال الذين أصبحوا بجانبه.

ـ "ماذا تفعل هنا؟" سأل أحد الواصلين. لكن الشاب لم يجبه بل حافظ على هدوءه بالرغم من الخوف والقلق اللذان كان يعتريانه.. فعليه الآن أن يُخرج الكنز ولهذا كان خائفاً.

ـ "إننا ناجون من الحرب، قال الآخر. ونحن بحاجة لمعرفة ما تخبئه هنا.. إننا نحتاج للمال.."

ـ "لا أخبئ شيئاً" أجاب الشاب، فسحبه أحد الرجال خارج الحفرة من ذراعه.. وأخذ آخر يفتشه فوجد قطعة الذهب التي كانت في أحد جيوبه..

ـ "لديه ذهب.." قال الرجل. وحين أنار ضوء القمر وجه هذا الرجل رأى الشاب في عينيه الموت.

ـ "من المؤكد أن لديه المزيد من الذهب المخبأ في الأرض.." قال آخر..

وهكذا أجبروه على متابعة الحفر.. لكنه لم يعثر على شيء فضربوه بكل قوتهم وبقوا يضربونه حتى بزغت أشعة الشمس الأولى. فتمزقت ثيابه وشعر بالموت قريباً منه.

ـ "بماذا يفيدنا المال إذا دنا الموت منَّا؟ من النادر جداً أن يستطيع المال إنقاذ أحد من الموت" هذه كلمات الخيميائي التي ترددت في ذاكرة الشاب في تلك الساعة.

ـ "أنا أبحث عن كنز" قال أخيراً. وبالرغم من الجروح التي كانت على فمه المتورم من الضربات التي تلقاها، روى لمقتحميه أنه كان قد حلم لمرتين بكنز مدفون بجوار الأهرامات.

ذلك الذي كان يبدون عليه أنه القائد بقي صامت لفترة، ثم توجه لأحد شركائه قائلاً: ـ "دعونا نتركه وشأنه ـ من المؤكد أنه لا يملك شيئاً آخر.. وأن هذا الذهب الذي معه مسروق"

وقع الشاب أرضاً وانغمس وجهه في الرمل.. كان هناك عينان تبحثان عن عيناه.. إنه رئيس العصابة.. لكن الشاب كان ينظر باتجاه الأهرامات.

ـ "لنذهب من هنا" قال الرئيس لرفاقه.. ثم استدار نحو الشاب وقال له:

ـ "اطمئن.. لن تموت.. ستعيش وستتعلم بأنه ليس على المرء أن يكون أحمق إلى هذا الحد هنا، حيث أنت الآن بالضبط.. رأيت حلماً منذ سنتين.. وقد تكرر مرتين حلمت أنه إذا ما ذهبت إلى إسبانية.. وبحثت في البرية عن كنيسة مهدمة يذهب إليها الرعاة غالباً ليناموا فيها مع خرافهم.. سأجد كنزاً مدفوناً تحت جميزة نامية في موضع موهف تلك الكنيسة.. لكنني لم أكن أبلهاً كفاية كي أجتاز كل الصحراء.. فقط لأنني رأيت نفس الحلم مرتين.." قال الرجل هذا.. وغادر في الحال مع رفاقه. نهض الشاب بتعب..

ونظر مرّة أخرى للأهرامات. فابتسمت له.. وبادلها الابتسامة..
وامتلأ قلبه حبوراً".

لقد وجد كنزه

خاتمة

عندما وصل "سانتياغو" إلى الكنيسة الصغيرة المهجورة.. كان الليل على وشك الهبوط. كانت الجميزة الكبيرة ما زالت كما هي في موضع الموهف وما زال السقف النصف هابط يسمح للمرء بمراقبة النجوم.

تذكر أنه جاء ذات مرّة إلى هنا مع نعاجه.. وأمضى ليلة هادئة.. باستثناء الحلم الذي رآه.

وها هو الآن هنا.. لكن دون قطيعه.. بل بصحبة مجرفة. جلس لوقت طويل يتأمل السماء.. ثم أخرج من جعبته قنينة خمر.. وشرب منها.

وذكره هذا بإحدى ليالي الصحراء عندما كان يشرب الخمر مع الخيميائي وينظر للنجوم.. فكر في الطرق التي قطعها.. وفي الطريقة الغريبة التي أظهر بها الله له الكنز. لولا إيمانه بالأحلام المتكررة لما التقى بالغجرية.. ولا بالملك.. ولا باللص.. ولا.. "القائمة طويلة جداً.. هذا صحيح.. لكن الطريق كانت موجَّهة بالإشارات ولم يكن بإمكاني أن أنخدع" قال لنفسه.

غفى دون أن يحس بنفسه.. ولم يستيقظ إلا عندما أصبحت شمس اليوم التالية عاليةً.. فأخذ المجرفة وبدأ يحفر عند أقدام الجميزة.

ـ "يا لك من ساحر عجوز ـ قال لنفسه. لقد كنت على علم بكل شيء.. حتى أنك تركت لي بعض الذهب في الدير كي أستطيع العودة إلى هذه الكنيسة. لقد ضحك الراهب كثيراً عندما رآني أظهر بثيابي الممزقة عند باب الدير..

ألم يكن بإمكانك أن تجنبني كل هذا؟.." سأل الشاب ومن بعيد سمع الريح تجيبه: ـ "لا.. فلو أخبرتك بكل شيء، لما رأيت الأهرامات. إنها جميلة جداً ـ أليس كذلك؟" إنه صوت الخيميائي.. لقد عرفه الشاب فابتسم وعاد للحفر.. وبعد نصف ساعة صدمت مجرفته شيء صلب. وبعد ساعة كان أمامه صندوق مليء بنقود ذهبية إسبانية قديمة.. وأحجار كريمة.. وأقنعة من ذهب مع ريش أبيض وأحمر.. وأصنام حجرية مرصعة بالألماس.. إنها آثار من الغزو الذي نسيته البلاد منذ زمن بعيد جداً.. ونسي الغازي أيضاً أن يرويها لأحفاده"

أخرج من جعبته أورميم وتوميم.. لم يكن قد استفاد منهما إلاّ مرّة واحدة في السوق.. في أحد الصياحات.. فالحياة وطريقه كانا مليئان بالإشارات دائماً.

وضع الحجران في الصندوق فهما يشكلان جزءاً من كنزه.. لأنهما يذكرانه بالملك العجوز الذي لن يلتقي به ثانية أبداً.

ـ "في الحقيقة الحياة سخيَّة مع مَن يعيش أسطورته الذاتية.." فكّر. وفي الحال تذكّر أن عليه أن يذهب إلى "طريفة" ليعطي عشر كنزه للغجرية.

ـ "لكم هم محتالون الغجر ـ ، قال لنفسه. ربما لأنهم يسافرون كثيراً.."

بدأت الريح تهب.. إنها شرقية.. الريح القادمة من إفريقية.

لكنها الآن لا تحمل رائحة الصحراء.. ولا تهديد اجتياح المغاربة. إنها تحمل عطراً كان يعرفه جيداً.. وتوشوش بقلبه وصلت بكل رقة لتستقر على شفتيه.

ابتسم ـ إنها المرة الأولى التي تفعل بها هذا.

ـ "ها أنا ذا قادم يا فاطمة.." قال سانتياغو.

الفهرس